٢٠٢٢

هكذا يوظف الإسلاميون الدين

طارق أبو السعد
كاتب مصري

صناعة الرموز.. كيف يستغل الإخوان شعبية المتعاطفين؟

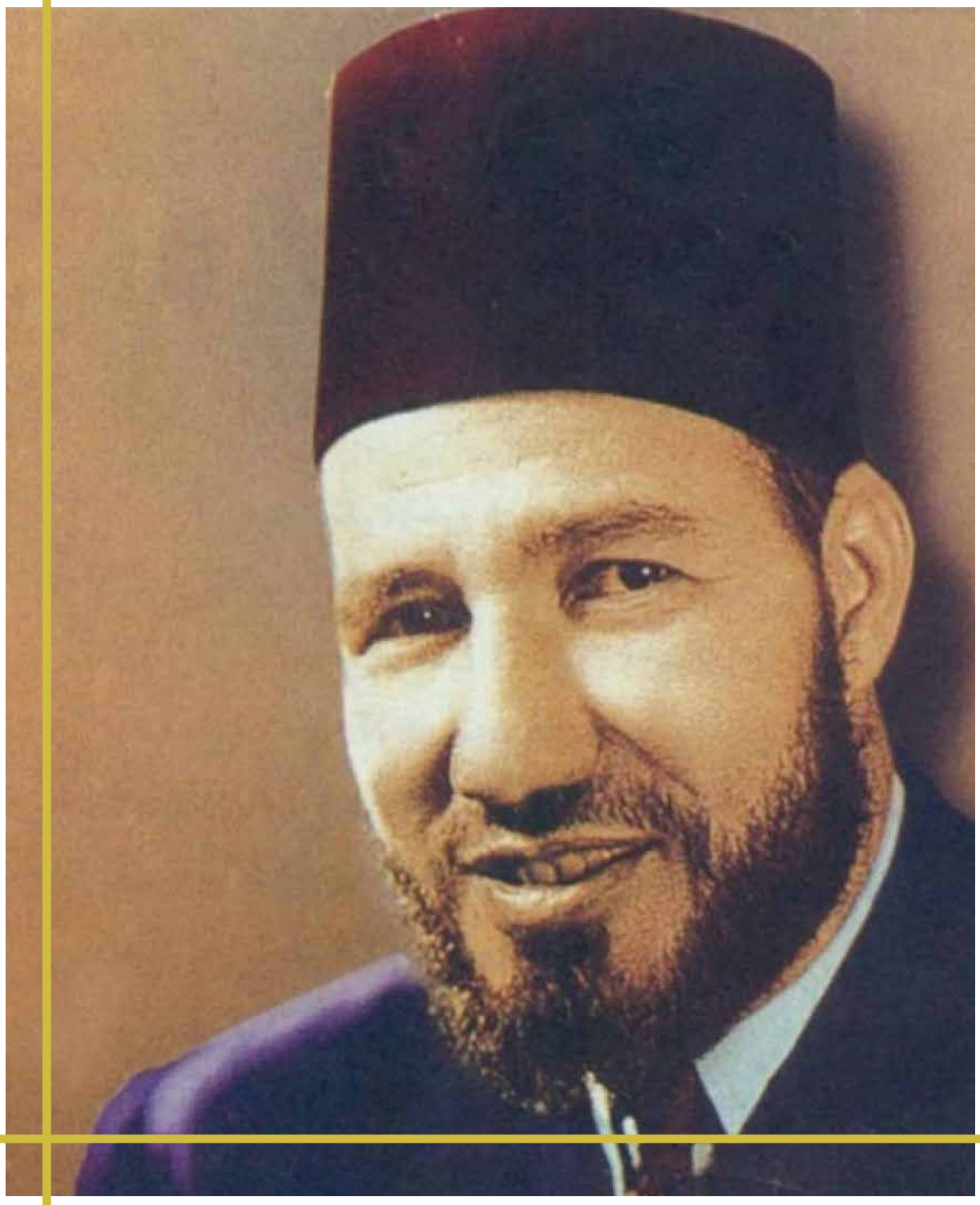

«صناعة الرمز لا علاقة لها بالرمز ذاته وبإمكانياته لأنّها عملية تخطيطية ذات نسق اجتماعي نفسي طويل الأجل»

شهدت الساحة الاجتماعية والسياسية والرياضية المصرية والعربية، في الآونة الأخيرة ظهور بعض الرموز المحسوبين على جماعة الإخوان المسلمين، أطلوا على العالم من خلال بعض القنوات الفضائية ذات المشاهدة العالية، ومن ثم بدأ (تنجيم) الشخص المنوط به أن يكون رمزاً اجتماعياً، فعملية خلق رمز أو صناعته في وسط اجتماعي متخم بالأحداث المتغيرة والتناقضات السياسية هي عملية شاقة وصعبة ومكلفة، لكنها في النهاية عمل اختيار إجباري لأي جماعة أو حزب يستهدف التأثير على الرأي العام لصالحه، فالرمز ولا شك يحقق أهدافاً مستقبلية إضافية لمن تولى صناعته ولا غنى عنه.

إنّ صناعة الرمز لا علاقة لها حتى بالرمز ذاته ولا بإمكانياته، لأنّها عملية تخطيطية ذات نسق اجتماعي نفسي طويل الأجل، تحتاج لمنصة ذات ذراع إعلامي عالي التأثير، وتوفير موضع ديني أو اجتماعي لا خلاف عليه، يقوم بالدفاع عنه، مع توفير لجان إلكترونية وأعداد من الأصوات التي تروّج له وتقدمه كمدافع وحيد عن تلك القيمة أو هذه القضية، ومع تماهي المشاهدين وعموم المتلقين لرسالة الرمز المصطنعة، يصبح من الصعب كشف الرمز أو التحذير من دوره الوظيفي لصالح جماعة إرهابية، حيث تحميه شعبيته ونجوميته، وبالتالي وبعد الاطمئنان لشعبية الرمز وتماهي العامة معه، يقوم بالترويج لأفكار الإخوان أو مهاجمة من تريد الجماعة مهاجمته.

وتاريخ صناعة الرموز داخل جماعة الإخوان المسلمين يمتد من المؤسس حسن البنا حتى اليوم، وهي رحلة مليئة بالمنعطفات والتقلبات ومكتظة بالدروس التي تعلمها الإخوان عبر تاريخهم، إنّ فهم وكشف لماذا وكيف يصنع الإخوان رموزهم، يؤمّن الجبهة الداخلية لأي محاولة لاختراقها عبر رموز الجماعة وفضح أساليبهم ومخططهم لتسريب أفكارهم المسمومة في المجتمع.

اتّجه حسن البنا من لحظة التأسيس إلى ضم العناصر البسيطة قليلة المعرفة غير المتعلمة وسهلة الانقياد، حتى لا يعارضه أحد ولا يكشف ضعف تكوينه العلمي والفقهي والمعرفي، وحتى يحظى بانبهار اتباعه به، وبكل كلمة يقولها في

« تاريخ صناعة الرموز داخل جماعة الإخوان المسلمين يمتد من المؤسس حسن البنا حتى اليوم»

موعظته لهم. ومع استمرار عمل الإخوان وانتشار أخبارهم في مجتمع الإسماعيلية حيث شهدت المدينة مولد الجماعة، ظهرت الحاجة إلى ضم عناصر ذات وجاهة اجتماعية يستمد منها البنا قبولاً مجتمعياً بين السكان.

وبالفعل ضمّ شخصية علمية أزهرية مرموقة في المجتمع الإسماعيلي، غير أنّ الصدام الذي وقع مع هذه الشخصية الرمز وانتهى بمأساة شرحها البنا في مذكراته (مذكرات الدعوة والداعية) جعلته ينصرف عن ضم شخصيات تفوقه مكانة اجتماعية أو علماً فقهياً.

لذا ففي المرحلة التالية لم ينشغل حسن البنا بجذب الرموز والوجهاء كثيراً، وذلك حتى منتصف أربعينيات القرن الماضي، لكن بعد أن تضخمت الجماعة وأصبح لها دور في المجتمع المصري، وبعد أن ارتفع سقف طموحات المؤسس والانتقال من ظهير شعبي لحكومة ما، قدم نفسه وجماعته كقوة سياسية تستحق الحكم، ولكن للأسف كان الصف الإخواني فقيراً في الشخصيات العامة ورجال الدولة والوجهاء، ولا يوجد بها قيادة رفيعة المستوى سوى أحمد أفندي السكري، وهو سكرتير مدرسة ابتدائي، هنا ظهرت الحاجة إلى ضم عناصر لها وجاهتها، فنشط حسن البنا في أوساط الطبقة البرجوازية الصغرى وقتها، وتمكن من ضمّ المستشار صالح أبو رقيق والمحامي عمر التلمساني وضابط الشرطة صلاح شادي، والمحامي حسن محمد العشماوي وابن وزير الأوقاف محمد العشماوي وزوج أخته منير دلة المستشار بمجلس الدولة.

أدرك الإخوان أنّ وجود شخصيات عامة ورموز مجتمعية مهم للغاية في تقديم الصورة الذهنية للجماعة، كما أنّهم يقومون بدور الظهير الشعبي المدافع عن الجماعة عندما تتعرض لأي انتقاد أو هجوم، والناس عادة تميل لأصحاب الهيئات والمناصب والوجاهة، فيصبح وجود هؤلاء في الجماعة دليلاً على صحة أغراض التنظيم، أو هكذا كان يسوق الإخوان لرموزهم.

واجه الإخوان في التأسيس الثاني في سبعينيات القرن العشرين صعوبة توظيف الرموز الجديدة، إذ كان غالبيتهم مستقدمين من الخارج وتسببوا في مشاكل كثيرة عبر تصريحاتهم التي لم تكن تتوافق مع الجماعة غالباً، استدرك ذلك مصطفى مشهور في مرحلة صناعة

« أدرك الإخوان أهمية وجود شخصيات عامة ورموز مجتمعية يقومون بدور الظهير الشعبي عند الأزمات»

المؤسسات داخل التنظيم، وقرّر أن يصنع من عناصر الجماعة رموزاً اجتماعية لقيادة الرأي العام، ورموزاً سياسية لخوض الانتخابات، توسعت دائرة الرموز وفي التسعينيات لتشمل رموزاً رياضية وفنية لها تأثير جماهيري قوي.

تمر صناعة الرمز الإخواني بأربع مراحل غاية في الأهمية والدقة، الأولى مرحلة الترشيح، تبدأ بترشيح عضو الجماعة الذي تتوافر فيه صفات أساسية، أهمها على الإطلاق التأكد من ولائه ومن حقيقة عضويته في الجماعة. الثانية مرحلة الاختيار: تشمل هذه المرحلة عقد عدة لقاءات مع المرشحين لفهم شخصياتهم وهل يصلحون أم لا لمهمتهم الجديدة، بعدها يتم اختيار المجموعة التي سيطبق عليها برنامج صناعة الرموز. الثالثة مرحلة التأهيل: وفيها يتم عقد دورات عامة تشمل التدريب على الخطاب الجماهيري، مثل فن الإلقاء وفن التعامل مع الجماهير وفن انتزاع التصفيق، ودورات في اختيار الزي والملبس وطرق عقد رابطة العنق، ويتم تدريس فن سرقة الأضواء من الآخرين، كما تُعقد أيضاً دورات تخصصية للجانب الذي سيشغله الرمز. المرحلة الرابعة طرح الرمز للمجتمع: الشخصيات التي قررت الجماعة تقديمها كرموز سياسية؛ فيتم عقد ندوات ويتم طرحه كمتحدث عن الجماعة، وبالتكرار يصبح وجهاً معروفاً في الائتلافات السياسية ويتم الترويج له في الشارع المصري باعتباره حاملاً لفكر الإخوان، فإذا كان الرمز رجل مجتمع يتم تكوين لجنة تديره، وعليه تنفيذ ما يطلب منه بمنتهى الدقة، تصحبه اللجنة إلى الجنائز المهمة التي يجب أن يحضرها، بل يتصدر المشهد فيها وتقديم واجب العزاء، وذلك لكسب العائلات الكبرى، وكذلك المناسبات العامة والأفراح للشخصيات المهمة، كما يتم تسويقه باعتباره (مرضياً) أي قاضٍ في القضاء العرفي إذا كان في مجتمع شعبي يحتكم للأحكام العرفية، وتتعدد مجالات الرموز الإخوانية وتشمل أعمال البر والجمعيات الخيرية والعمل النقابي الخدمي.

يبدأ الرمز مرحلته في المجتمع المحيط به، وإذا تفوق وصار رمزاً شعبياً يتم معاملته معاملة خاصة داخل التنظيم، فيتم إعفاؤه من حضور الفاعليات الكبرى، ويتم تخفيف الحضور للأسر التربوية، مع تخصيص أخ مسؤول عنه يلتقيه بطريقة تبدو أنّها عادية،

وهـي في الأصـل إداريـة أو تربويـة لصالـح الجماعـة، والهـدف مـن التخفيـف عـدم الـزج بـه في مشـاكل الجماعـة الأمنيـة مـع الشرطـة المصريـة فيتـم حرقـه.

وإلى ما قبـل أحـداث «الربيـع العـربي» لـم ينجـح الإخـوان كثـيراً في صناعـة رمـوز شـعبية مهمـة، وكل مـا قدموه عـبر تاريخهم الممتـد لا يتجـاوز أصابـع اليـد الواحـدة، رغـم الإمكانيـات الضخمـة والإنفـاق غـير العـادي، ففـي الغالـب تتـلاشى نجوميـة رمـوز الإخـوان وتنـصرف عنهـم الجماهـير، نظـراً لتمحورهـم حـول أفـكار التنظيـم مـع وجـود قيـود تنظيميـة تمنعهـم حريـة الحركـة وحريـة التفكـير، إضافـة إلى أنّ صناعتهـم تركـزت في حقـل العمـل السـياسي المـليء بالهجـوم والصراعـات ممـا عـرّض شـخصياتهم للضغـوط وللهجـوم فلـم يصمـدوا كثـيراً.

ظـل الإخـوان يبحثـون عـن رمـز إخواني شـعبي تجتمـع عليـه النـاس قبـل الإخـوان فوجـدوا ضالتهـم في المجـال الريـاضي، حيـث الـصراع أقـل والشـعبية أعـلى والتأثـير كبـير، ومـن ثـم تمكنـوا مـن تسـويق رمزهـم والترويـج لـه باعتبـاره تجسـيداً للخلـق الكريـم وللموهبـة الفـذة والوحيـد المسـتحق لحـب الجماهـير، ولا مانـع مـن نسـج حكايـات مكذوبـة تخـدم الرمـز، وعـبر تبنيـه لقضيـة جماهيريـة يصعـب التنصـل منهـا، ولتكـن قضيـة فلسـطين، فيصبـح رمـزاً وبطـلاً في آن واحـد، ويظـل الرمـز الشـعبي المصنـوع للإخـوان كامنـاً إلى أن تحتاجـه الجماعـة، عندهـا يبـدأ في إعـلان انحيـازه للإخـوان ولخياراتهـا الفكريـة والسياسـية والفقهيـة.

مـن المحتمـل أن تكـون بعـض رمـوز الإخـوان المصنوعـة قـد رجعـت إلى رشـدها، أو ضعـف تأثيرهـا الجماهـيري، نظـراً لمـا تقـوم بـه الجماعـة مـن مخططـات تدميريـة للأوطـان العربيـة، ونظـراً لانـصراف الجماهـير عـن الجماعـة ذاتهـا، لكـن المؤكـد أنّ الجماعـة لـن تكـف ولـن تمـلّ مـن صناعـة رمـوز لهـم في كل فـترة لضمـان وجـود مـن يمهـد لهـم الطريـق للعـودة مـرة ثانيـة لهـذا وجـب التنبيـه والتحذيـر مـن خطـورة رمـوز الإخـوان الجماهيريـة.

التجسس عند حسن البنا:
خطيئة الآخرين فقط!

اتفق المسلمون، علماؤهم وعوامّهم، أنّ التجسس وتحسس الأخبار ومحاولة الوصول للأسرار وكشف عورات الناس وهتك المستور من الرذائل والآثام، ويحرص الدعاة أن يحذروا المسلمين من الوقوع في تلك الخطايا، وقبل كل شيء يحذرون أنفسهم وأهليهم من الوقوع فيما نهون الناس عنه، وأن يتعففوا عن السقوط في البذاءات التي يستخدمها غيرهم.

حسن البنا كان يرى نفسه داعية إسلامياً، بل داعية كبيراً وزعيماً يقوم بدور الوعظ والإرشاد للناس جميعاً، ويدعوهم للانضمام الى جماعته؛ لأنّها في عرفه هي الوحيدة التي ستسير بهم إلى طريق الجنة، وفي خطبه ومقالاته لطالما حث الناس على حسن الخلق، ونهى عن الكذب والتجسس والغيبة والسخرية من الآخرين، وكان من المفترض أن يكون نموذجاً لما يأمر الناس به.

بالبحث في سيرة الجماعة ومؤسسها نكتشف أنّ البنا كثيراً ما سقط في إثم التجسس، مع قدرة عجيبة على تبرير تلك الفعلة المحرمة شرعاً والمنبوذة مجتمعياً،

حسن البنا الداعية تجسس بالفعل على أتباعه، وتجسس على الأحزاب المختلفة، وتجسس على بعض رموز الدولة مثل الملك، وتجسس حتى على حلفائه ومناصريه من أصحاب الفكرة الإسلامية.

ففي الإسماعيلية وبعدما اشتدت الخلافات بينه وبين الكثير من أهلها

«البنا كثيراً ما سقط في إثم التجسس مع قدرة عجيبة على تبرير تلك الفعلة المحرمة شرعاً والمنبوذة مجتمعياً»

وبعض من أعضاء جماعته، قرر الانتقال إلى القاهرة، وظهرت معضلة من يخلفه في قيادة الجماعة والجمعية في الإسماعيلية، وكانت الآراء كلها تسير نحو شيخ أزهري ذي علم ودين شهد له الجميع بحسن أدبه وعلمه، لكن حسن البنا لم يكن يرغب في شيخ يزاحمه الثقافة الدينية بعلم أعلم منه، أو يتمتع بوجاهة اجتماعية أرق منه، بل يريد رجلاً يسمع له ويطيع، فاختار رجلاً طيب وخلوقاً لكنه كان ضعيف العلم.

واشتدت معارضة بعض أعضاء الإخوان لحسن البنا، وكان من رأي هؤلاء الأعضاء أنّ الأمر شورى، وأنّهم وحدهم من يختار من يرأسهم، وهم قد اختاروا الأعلم، شعر حسن البنا بالخطر لو أنهم فرضوا عليه الشيخ العالم، فقرر أن يتلصص عليهم ليعلم ماذا يقولون وماذا يدبرون، ولنقرأ ما كتبه حسن البنا بنفسه عن هذه اللحظة في مذكرات «الدعوة والداعية»، يقول: «قد أرِقت ليلة فخرجت لصلاة الفجر بالمسجد العباسي قبل الوقت بنحو ساعة أو أكثر، ومررت في الطريق على بيت أحدهم فإذا هو مضاء ونوافذه مفتحة وهناك أصوات في نقاش استرعت انتباهي، فإذا الشيخ جالس وهم حوله، وهو يرسم لهم طرائق الكيد والخصام».

قد نصدق أنه قد أَرِق وأن الوقت كان قبيل الفجر بساعة وأن الطريق يمر ببيت أحدهم، لكن من الصعب أن نصدق أنّ النوافذ كانت مفتوحة وأنه تمكن من سماع الحوار كاملاً بل ومشاهدة الجالسين بالترتيب الذي وصفه دون أن يراه أحد! إلا إذا كان يتخفى ويتجسس عليهم عمداً، العجيب أنّ أتباع حسن البنا يرددون هذه الحكاية بكل فخر دون أن يهتز لهم جفن بأنّ مرشدهم كان يتجسس على أتباعه ولا يخجل من أن يعترف بذلك.

قد تكون تلك الحكاية ملتبسة على البعض، فيبرر التجسس أنه لم يكن مقصوداً في ذاته، لكن إذا ضممنا تلك الواقعة الى ما أورده محمود عساف رئيس قسم المعلومات الذي انشأه حسن البنا (أو المخابرات الإخوانية كما يحلو للبعض وصفها) في كتابه «مع الإمام الشهيد حسن البنا» صفحة ١٨، نرى أنّ البنا كان يستخدم جواسيس في أكثر الأماكن حساسية، وأنّه اكتشف ذلك عندما رفع أحد البحارة

«البنا استخدم سياسة توظيف الجواسيس في نقل ما يريد إلى القلم السياسي مقابل مال يدفعه الإخوان لهم»

العاملين على يخت الملك فاروق تقريراً لحسن البنا كتب فيه تقاصيل رحلة الملك، بداية أسماء الموجودين على ظهر اليخت، وأين ذهبوا ومع من تقابلوا، كما تضمن التقرير وصفاً لاجواء المرح التي وصفها عساف بأنها مَساخر، مما يعني أن التجسس لم يكن فعلاً عارضاً بل سلوك متجذر في حسن البنا.

لم يقف نشاط التجسس عند حسن البنا على أبتاعه أو الملك، بل وصل إلى الحزب الشيوعي؛ يقول عساف أيضاً: «عندما اشتدت الشيوعية في مصر، دَفَعنا هذا إلى زرع أحد الإخوان المتعاطفين (وهو الآن أستاذ جامعي) وكان يتقاضى خمسة جنيهات شهرياً مقابل إمداد الإخوان بأخبار الشيوعيين وذلك عام ١٩٤٦، هذه الأخبار منها ما كان يعرض في مجلة الكشكول الإخوانية، ومنها ما كان يعرض على حسن البنا ليأخذ بها علماً، ومنها ما كانوا يخطرون به مدير الأمن العام وكيل الداخلية المرحوم أحمد مرتضى المراغي».

الأمر لا يحتاج إلى تفسير أكثر من هذا عن الجهة التي كانوا يتجسسون لصالحها، ولا يزعم أحد أنّ هذا كان عملاً وطنياً، ولا يدّعي أحد أنّ الإبلاغ عن الشيوعيين كان من أجل معتقداتهم، بل كان من أجل معارضتهم للحكومة وقتها.

ومن المتواتر عند الإخوان حكايات الحاج فرج النجار الذي زرعه حسن البنا في الحزب الشيوعي إلى أن وصل الى منصب مهم في فرع الحزب بالغربية، وأنّه كان ينقل لهم أخبار الحزب، وقراراته ومواقفه السياسية من الحكومة ومواعيد المظاهرات، كما يتحدث الإخوان عن حكايات فرج النجار كأنها أساطير وكيف تملص من دعوة رفقاء الحزب له لشرب الخمر ومخالطة النساء، وكيف أبطل مؤامرتهم في إفشال مؤتمر الإخوان في الغربية، وكيف غرّر بشباب الحزب الشيوعي لينالوا «علقة» ساخنة على أيدي شباب الإخوان.

قد يكون من المتوقع أن يبرر الإخوان لأنفسهم اقتراف مرشدهم خطيئة التجسس المنهي عنها في كتاب الله، تحت الزعم أنّه كان يتجسس على الشيوعيين «الكَفَرة»، وعلى الملك الفاسد، لكن ما حجتهم وهم يتجسسون على رمز إسلامي ومناضل كان يناصرهم هو أحمد حسين،

«لم يقف نشاط التجسس عند حسن البنا على أتباعه أو الملك بل وصل إلى الحزب الشيوعي»

فما قولهم وهم يتجسسون ويزرعون رجلهم في جمعية كانت تشاركهم الفكر الإسلامي هي جمعية مصر الفتاة!

في نفس كتاب محمود عساف يذكر ذلك تفصيلياً، فيقول «كان أحمد حسين رئيس جمعية مصر الفتاة رجلاً وطنياً ينفجر حماساً وحبّاً لمصر، ولهذا كان تأثيره بالغاً على أتباعه»، العجيب أنّ هذه الوطنية والالتزام الديني لم تشفع عند حسن البنا، فطلب من أمين جهاز المخابرات الإخواني أن يتجسس عليه، يبرر عساف هذا بقوله: «نُفاجأ في يوم من الأيام بمقال في مجلة مصر الفتاة يقول فيها محرره، حانت خاتمة الدجل والشعوذة، الإخوان يتعاونون مع كل الأحزاب بلا مبدأ ويتحالفون مع الكل حتى الإنجليز الذين يسخرونهم لمحاربة الشيوعية والوطنية، ويفتحون لهم الشُعب في السودان وفلسطين وغيرها».

ثم يبرر عساف تجسسهم على أحمد حسين بأنّها ضرورة؛ فالإخوان يجب أن يتعرفوا على ما يدور في أدمغة قادة مصر الفتاة، فقرروا زرع أحدهم في صفوفه العام ١٩٤٥ فيقول «فكلفنا أحد الإخوان بالانخراط في الجمعية وهو المرحوم أسعد السيد أحمد الذي انضم إليهم وبرز فيهم سريعاً لنشاطه الملحوظ»، وعندما اكتُشف أمره في العام ١٩٤٨ علم أعضاء مصر الفتاة واعتدوا عليه بالضرب.

من الواضح أنّ علاقة حسن البنا بالسلطة وبرجال الأمن كانت قوية لدرجة أنّ عساف يقول إنّ حسن البنا كان يكتشف الجواسيس الذين يرسلهم الملك أو الذين يعملون في القلم السياسي إلى دار الإخوان فقد كانت له مصادره الخاصة! وهذا اعتراف آخر له ما بعده فمصادر البنا لم يكن يعرفها رجل المعلومات الأول في الجماعة.

المثير أنّ حسن البنا استخدم سياسة توظيف الجواسيس، في نقل ما يريد إلى القلم السياسي مقابل مال يدفعه الإخوان لهم، وهذه الأخبار كان يكتبها ويقدمها محمود عساف مرتين في الأسبوع للجواسيس المكتشفين تتضمن أخباراً عامة ودون الدخول في التفاصيل التي كان يبحث عنها القلم السياسي وقتها.

إنّ تاريخ مؤسس الإخوان المسلمين يجب أن يُدرس بدقة لفهم العوامل المجتمعية والسياسية التي جعلته يتبنى خيارات متناقضة مع بعضها البعض ومتضادة مع أصل دعوته، مما شكل ارتباكاً كبيراً في رصد حالة هذه الحركة.

مَن سبق سيد قطب بتجهيل المجتمعات؟

الجاهلية (المعاصرة) مصطلح قطبي بامتياز، ينسب إلى سيد قطب؛ صاحب أكبر تأثير في التيارات الإسلاموية التكفيرية، والمقصود بالجاهلية في فهم سيد قطب؛ أنّ المجتمعات المسلمة ارتدّت سلوكياً إلى مرحلة ما قبل الإسلام، بالتخلي عن تطبيق كتاب الله في المعاملات، وبالتنصل من الاحتكام إلى كتاب الله في الحكم والتشريع، ومَن يصرّ على التخلي والتنصل فقد ارتدّ عقائدياً إلى الجاهلية، دون هذا في أكثر من موضع، في كتابه الأشهر «في ظلال القرآن الكريم»؛ الذي يرسّخ معنى واحداً؛ هو «إما إسلام وإما جاهلية، إما إيمان وإما كفر، إما حكم الله وإما حكم الجاهلية»، وأنّ الذين لا يحكمون بما أنزل الله هم الكافرون الظالمون الفاسقون، والذين لا يقبلون حكم الله من المحكومين ما هم بمؤمنين.

غني عن البيان؛ أنّ انتشار مفهوم الجاهلية ترتب عليه اندفاع الشباب في تكفير مجتمعاتهم ومن ثم أحلّوا دماءها المصونة، ومن الجاهلية إلى الحاكمية إلى قتال الفئة الممتنعة، دخلنا في دوامة التكفير والتقتيل، التي لم نخرج منها إلى الآن، ربما في مقال آخر نشير إلى كمّ المغالطات التي وقع فيها سيد قطب، ونشير إلى حجم الردود عليه.

«انتشار مفهوم الجاهلية ترتب عليه اندفاع الشباب في تكفير مجتمعاتهم ومن ثم أحلّوا دماءها المصونة»

لكن من المهم الكشف، أولاً، عن بداية هذا المصطلح وولادته؛ معلوم أنّ «أبو الأعلى المودودي» هو صاحب مصطلح الجاهلية بمفهومه «الجديد»؛ حيث وضع فكرته الأولى في كتاب «الإسلام والجاهلية»، الذي كتبه العام ١٩٤١، لكنّ أفكار المودودي ظلت أسيرة المجتمع الهندي، ولم تنتعش هذه الأفكار إلا عندما بلغت العالم العربي، لكن كيف وصلت إلى المجتمع العربي، والمصري تحديداً؟ ومَن أول من نادى بها صراحة قبل أن يتلقّفها سيد قطب؟

وقع في يدي أعداد لمجلة «المسلمون»، في صيغة (pdf)، فوجدت أنّ مصطلح الجاهلية بمدلولاته الغريبة يتردّد على لسان الأستاذ حسن الهضيبي، المرشد الثاني للإخوان المسلمين، المرشد الذي لطالما تاه الإخوان به فخراً، باعتباره أكثر جيله اعتدالاً.

الهضيبي؛ الذي يرفع الإخوان كتابه «دعاة لا قضاة»، في وجه من يحاورهم، مستشهدين به كرجل معتدل ضدّ التكفير، وضدّ الحكم على الناس، لكنّ الحقيقة أنّه هو أول من صرّح بجاهلية المجتمع المصري مبكراً، وقبل سيد قطب.

في مقالته في مجلة «المسلمون»؛ التي كان صاحب امتيازها ومؤسّسها ورئيس تحريرها سعيد رمضان (زوج ابنة حسن البنا)، التي كان أحد أهم كتّابها: محبّ الدين الخطيب، معلم ومرشد البنا الأول؛ نجد مقالاً كتبه حسن الهضيبي، في عدد ربيع الأول ١٣٧٢ الموافق تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٢، تحت عنوان «إنّ هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم»: «قرأت فيما قرأت، أنّه وقعت حادثة قتل في إحدى قرى مديرية الشرقية في زمن محمد علي، فألّف لها محكمة خاصّة لتحقيقها والحكم فيها، فوقفتُ عند هذه الحقيقة أتأمّلها: حادثة واحدة، يؤلّف لها الحاكم محكمة خاصّة، واليوم محاكم الجنايات مقامة في كلّ مديرية (أي محافظة بمصطلحات اليوم)، وتفصل في قضايا القتل التي لا تعدّ بالآحاد؛ بل تعد بالعشرات، وأصبح القضاة لا ينفعلون بهذه الحوادث، ولا يهتمون بها، ويحكمون فيها كأنها مسائل عادية لا توجب الفزع ولا الاهتمام، وقلّ أن يحكم في واحدة منها بالقصاص؛ بل يحكم فيها بعقوبات تافهة لا تشفي الغليل، وقفت أمام هذه الحالة، وتأمّلتها، فوجدت الناس قد عادت إلى جاهلية مظلمة؛ فالقاتل لا يقتل، بل يتهم غيره، والمحكمة لا تحكم بالقصاص» انتهى.

«حسن الهضيبي أول من صرّح بجاهلية المجتمع المصري قبل سيد قطب والمودودي في مجلة «المسلمون»»

ويكتب في العدد الأول من السنة الثانية؛ أي في ربيع الأول ١٣٧٣ الموافق تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٣، تحت عنوان «هذا القرآن»: «كانت السيارة تطوي بنا الأرض، ونحن ننتقل بين قرى صعيد مصر لزيارة شعب الإخوان المسلمين، وكنا نتبادل الملاحظات على سير دعوة الإسلام واستجابة الناس لها، ووددنا لو أنّ الناس كانوا في ذلك سواء، فاستجابوا لها، وعلموا أنّ أكثرهم لم يكونوا مسلمين إلا بالاسم» انتهى.

نلاحظ في المقال الأول؛ أنّ الهضيبي يتهم الناس صراحة بالجاهلية، لماذا؟! لأنّهم يقبلون بحكم المحكمة في القاتل، ولا يطالبون بالقصاص، وفي المقال التالي؛ نجده يؤكد على المعنى ذاته، فيتهم المسلمين بأنّهم مسلمون بالاسم.

ليس مهماً ما إذا كان المفهوم الذي دشّنه أبو الأعلى المودودي متشابهاً في كلمات حسن الهضيبي أم لا؛ بل أنّ معاني ودلالات مفهوم الجاهلية متجذرة ومتأصلة في وجدان الهضيبي ونفسه، وأنّها لم تأتِ على لسانه، أو في مقاله، عفوياً، بل واضح أنّها فكرة يؤمن بها الإخوان، حتى هؤلاء الذين يوصفون بالاعتدال.

خطورة مقال الهضيبي؛ تكمن في أنّه جاء في مجلة إسلامية، ظلّ الكثير يروّج لها على أنّ كتّابها معتدلون، ومنها تسربت مفاهيم الحاكمية والجاهلية.

إنّ فكرة تجهيل المجتمع لم تكن وليدة أفكار غريبة تبناها سيد قطب، كما يدّعي البعض، ولا أزعم أنّ الهضيبي كان متأثراً بالمودودي؛ بل هو تلميذ نجيب في مدرسة حسن البنا، وما جاء على لسانه إنما هو ثمرة أفكار البنا، قبل المودودي.

فأوّل من رأى أنّ المسلم لا يكتمل إسلامه إلا إذا كان سياسياً؛ هو حسن البنا، في مؤتمر الطلبة، المنعقد في ٢٠ شباط (فبراير) ١٩٣٨، إذ قال صراحة: «بعد هذا التحديد العام لمعنى الإسلام الشامل، ولمعنى السياسة المجردة عن الحزبية؛ أستطيع أن أجهر صراحة بأنّ المسلم لن يتم إسلامه إلا إذا كان سياسياً»، البنا، بهذا الكلام، وإن لم يصرّح بتكفير، أو تجهيل المجتمع، إلا أنه وسم الناس، أكثر من مرّة، بأنّهم لا يفهمون دينهم، ومن لم يفهم شيئاً فقد جهله.

إنّ أفكار الهضيبي التي سكبها في مجلة «المسلمون»، هي نتاج أفكار حسن

«خطورة طرح الهضيبي في أنّه جاء في مجلة إسلامية ظلّ الكثير يروّج لها على أنّ كتّابها معتدلون»

البنـا، وإن تشـابهت مـع أفـكار المـودودي؛ فالقـارئ لمقـالات ورسـائل البنـا سيكتشـف أنّه كان يؤكـد معـنى واحـداً؛ هو أنّ المسـلمين لـم يعـودوا مسـلمين، إلا بالاسـم، وأنهـم لا يفهمـون دينهـم، وهـم جاهلـون بـه، وأنّ الإخـوان هـم فقـط مـن فهمـوا الإسـلام عـلى حقيقتـه.

وبذلـك تشـبّعت نفـوس أتباعـه بالفكرة، فنطقـوا بهـا وكتبوها فكراً، وبحثـوا عن تأصيلها شرعـاً، وعـن تفريعاتهـا، دونمـا أيّ ضغـوط أو ظـروف اسـتثنائية؛ بـل عـلى العكـس، عـبروا عمّـا بحقيقـة مكنـون صدورهـم، حين شـعروا بالتمكـين مـن المجتمـع، والوصـول للحكـم، فلعلّـك انتبهـت، صديقـي القـارئ، إلى أنّ مقـالات الهضيـبي الواضحـة، كانـت في عامَـي ١٩٥٢ و١٩٥٣، وقـت ثـورة يوليـو، الـتي كانـت وليـدة آنـذاك، والإخـوان آنـذاك كانـوا يملؤون السـمع والبـصر، وفتحـت لهـم الصحـف ليقولـوا فيهـا مـا يشـاؤون، ولـم يكـن أيّ منهـم مضطهـداً في السـجون بعـد؛ بـل كانـت هـي لحظتهـم الفريـدة الـتي اقتربـوا فيهـا مـن الحكـم، فأفصحـوا بمكنـون نفوسـهم، وحكمـوا عـلى المجتمـع بأنّـه جاهـلي.

الأحزاب الإسلامية المصرية في ١٠ أعوام.. ماذا أضافت للحياة السياسية؟

مر عقد من الزمان على السماح للأحزاب ذات المرجعية الإسلامية في مصر بالعمل السياسي رسمياً، بعد أن كانت ممنوعة، عشرة أعوام كاملة سمح فيها لها بالعمل بشكل قانوني، بعقد اجتماعات لأعضائها، وإجراء انتخابات داخلية معلنة، والتعليق على موضوعات مجتمعية، مدة تستحق الدراسة والتقييم، للإجابة عن أسئلة موضوعية مثل: هل استثمرت الأحزاب تلك الفرصة لتثبت أنها جديرة بالحصول عليها؟ أم أهدرتها في الخلافات الفقهية المؤسسة للمرجعية الإسلامية؟ هل استطاعت الأحزاب الإسلامية أن تكون إضافة في الحياة السياسية وترسيخاً عملياً للدولة المدنية القانونية، أم أن تجربتهم لم تتجاوز كونها فرصة لبث أفكارهم الماضوية التقليدية القديمة التي يبثونها عندما كانوا جماعة سرية ممنوعة بالقانون.

«الإسلاميون بدل إيجاد حياة سياسية بقيم إسلامية جديدة إذا بهم يمارسون السياسة بفكرة صراع أهل الحق ضد أهل الباطل»

هل أثبتت التجربة أنّ السماح لهم بالعمل الرسمي منعهم من حمل السلاح والخروج على الدولة، أم أنهم فور الاختلاف معهم استدعوا النصوص الماضوية التي تبيح لهم قتل المخالفين لهم واعتبارهم مستحلي الدماء؟ هل فعلاً الشارع المصري كان ينتظرهم ليملأوا الأرض سلاماً وعدلاً ورحمة لأنهم أكثر الناس تقوى؟ أم أنّ الإقبال عليهم كان تجربة مريرة لم يتحمل المجتمع المصري استكمالها للنهاية؟

تبدأ قصة الأحزاب الإسلاموية بعد ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١، حيث تم تعديل قانون الأحزاب السياسية، وسمح للأحزاب ذات المرجعية الإسلامية بالتسجيل والحصول على الترخيص لمزاولة العمل الحزبي السياسي، خلاف مرحلة مبارك التي كانت تعتبر أنّ الأحزاب ذات المرجعية الإسلامية هي أحزاب دينية، وبالتالي يحظر قيامها، لكن الوضع تغير فجأة، ولم تكن تلك الجماعات على استعداد كاف لاستيعاب ما حدث، لكنهم تعاطوا مع أحداث «٢٥ يناير» بكثير من الحذر، وبعد تنحي مبارك اندفعوا للمشاركة في كافة الأنشطة السياسية المحرومين منها، لكنهم شاركوا معتبرين أنفسهم الورثة الشرعيين لدولة مبارك.

فأسرعت جماعة الإخوان بتسجيل «حزب الحرية والعدالة» في ٦ حزيران (يونيو) ٢٠١١ ، كامتداد لها، كما تمكنت الدعوة السلفية العلمية (سلفية الإسكندرية) من تقديم «حزب النور» في ١٢ من الشهر نفسه كممثل لها، وتمكنت الجماعة الإسلامية من تقديم «حزب البناء والتنمية» في ٢٩ آب (أغسطس) ٢٠١١ كممثل لها.

نلاحظ أنّ المكون الثلاثي الرئيسي للحالة الإسلاموية المصرية، أول من استفاد من ثورة ٢٥ يناير، وباستثناء الإخوان فإنّ مسارعة السلفيين والجماعة الاسلامية لإنشاء أحزاب سياسية لهم، جاء في الغالب عكس توجهاتهم السابقة، والتي تم تربية كوادرهم الرئيسة عليه، مما ترك أثراً سلبياً أثناء الممارسة السياسية، ومهما أفرط دعاة السلفية أو الجماعة الإسلامية في سرد مبررات انخراطهم في العمل السياسي، فقد ظل المواطن المصري يتوجس خيفة من الانخراط في صفوفهم وتنظيماتهم، وظلت العضوية محصورة في عناصر التيار وإن لم تكن ممنوعة على غيرهم.

ولأسباب مختلفة، شعرت باقي مكونات الحالة الإسلامية بضرورة التواجد بحزب رسمي، ربما خوفاً من هيمنة تيار بعينه

«ظل المواطن المصري يتوجس خيفة من الانخراط في صفوفهم وتنظيماتهم وظلت العضوية محصورة في عناصر التيار»

على الحالة الإسلاموية، وابتلاعه الآخرين فيصبح هو المعبر الوحيد للإسلام، أو ربما حتى لا تختصر التجربة في حزب واحد، إن نجحت التجربة نجح المشروع الاسلاموي، وإن فشلت فشل المشروع بأكمله، لذا تقدم التيار السلفي الحركي، وهو يختلف عن سلفية الإسكندرية، بتكوين حزب الفضيلة ليكون ذراعه السياسي، وعقب حصول الحزب على رخصة العمل نشبت خلافات حادة غير منطقية بين المؤسسين، نتج عنه انشقاق في الحزب، وتكوين حزب جديد هو «حزب الأصالة»، فأصبح للتيار السلفي الحركي حزبان «الفضيلة» و«الأصالة».

ثم بانشقاق رئيس «حزب النور» الدكتور عماد عبد الغفور وتأسيسه حزب «الوطن» في ١ كانون الثاني (يناير) ٢٠١٣، يصبح للسلفية العلمية بالإسكندرية حزبان، ثم في آخر التجربة؛ يقوم الإخواني «حازم صلاح أبو إسماعيل» بجمع شتات تيار «حازمون»، وهو تيار سائل في حزب، أُطلق عليه «حزب الراية» وذلك في شباط (فبراير) ٢٠١٣.

ويمكننا رصد بعض الملاحظات المهمة على الأحزاب ذات المرجعية الإسلامية في تلك المرحلة، فيلاحظ في مرحلة التأسيس سهولة الانشقاق، رغم أنّ الجذر الفكري واحد وأنّ الوسيلة واحدة، إلا أنّ الانشقاق كان الحل الحاضر بقوة عند أول خلاف، وهذا يعطي دلالة عن هشاشة المرجعية في التوحيد وجمع الكلمة، فلم ينجحوا في تطبيق روح الأخوة الإسلامية التي بشروا بها دوماً؛ من الواضح أنّ الإسلاميين بدل أن يوجدوا حياة سياسية بقيم إسلامية جديدة، إذا بهم يمارسون السياسة بفكرة صراع أهل الحق ضد أهل الباطل وهو سمت إسلاموي بامتياز.

يلاحظ أيضاً في مرحلة التأسيس، تشتت الغاية الحزبية، فالغاية من أي حزب سياسي هي التنافس على تقديم البرامج الحزبية التي يرون أنّها الأفضل في قيادة المجتمع أو المشاركة في قيادته، لكن من الواضح أنّ قواعد الحزب كانت ترغب في أن يكون الحزب مجرد واجهة للجماعة لا أكثر، لذا يلاحظ أنّهم مارسوا العمل الدعوي تحت لافتة الحزب، مما خلق فجوة بين الغايتين أضعفت وجودهم في الشارع المصري.

شاركت الأحزاب ذات المرجعية الإسلامية في الانتخابات البرلمانية، وحصلت

«يلاحظ في مرحلة التأسيس سهولة الانشقاق رغم أنّ الجذر الفكري والوسيلة هي نفسها»

مجتمعة على أغلبية مطلقة في البرلمان، وأغلبية مطلقة أيضاً في مجلس الشورى الغرفة الثانية للبرلمان المصري، وتشير التقارير السياسية عن تلك الفترة أنّ أداءهم كان مليئاً بالمراهقة السياسية، مثل خلافاتهم على القسم في البرلمان، أو على المادة الثانية من الدستور، أو على الإصرار على تكوين هيئة دينية منوط بها مراجعة القوانين لتكون موفقة للشريعة الإسلامية، من هنا لم يشعر المواطن المصري بأنّ ثمة تغييراً جذرياً وجوهرياً يتناسب مع الثورة والإطاحة بمبارك الرئيس القوي المهيمن على السلطة قرابة الثلاثين عاماً، فانصرف عن التعلق بهم أو اعتبارهم أملاً في الحصول على مستحقاته المسلوبة في المرحلة السابقة، وعندما فقد البرلمان بوصلته تم حله من قبل المجلس العسكري الذي كان يدير البلاد.

ثم تُوّج حصاد الإسلاميين بفوز مرشح الإخوان المسلمين بمنصب رئيس الجمهورية، وظهرت طفولية التفكير عند الأحزاب ذات المرجعية الإسلامية، التي عادت كل القوى المدنية ولاحقتها بالشائعات لما تملكه من قوة تأثير في الشارع المصري، ودخلت مصر في موجة من الرفض الشعبي لسياسة الرئيس الإخواني محمد مرسي، ولم يدرك قادة الأحزاب الإسلامية طبيعة اللحظة التاريخية ولا الظروف المجتمعية ولا موقعهم كأحزاب سياسية عليهم قيادة العمل السياسي لبر الأمان، بل ارتكسوا إلى حالتهم الأيديولوجية وانحازوا للإخوان باعتبار أنّ فوز محمد مرسي بالرئاسة هو تمكين لدين الله، وليس نجاحاً سياسياً تحكمه قواعد تداول السلطة، ومن ثم كانت مواقفهم متسقة مع أفكار الجماعات الإسلامية، المتناقضة مع الدور الوظيفي للحزب، فعضو الجماعة يرى مناصرة الإخوان ومحمد مرسي واجباً وفرضاً دينياً، في حين كان عليه كسياسي أن ينحاز للجماهير وينضم إليها، لهذا نجد أنّ رفض حزب النور الثورة على مرسي كان من منطلق ديني؛ حيث إنّهم يؤمنون بعدم الخروج على الحاكم المتغلب، وهي فكرة تتنافض بالكلية مع تداول السلطة، وحق الشعب في الثورة وتغيير الحكم بالقوة مستخدمين أدوات ومؤسسات الشعب في ذلك، كما نلاحظ أنّ حزب الوطن والراية والبناء والتنمية انحازوا للإخوان في اعتصام رابعة المسلّح، وهو عمل غير سياسي بالكلية، ولا يمكن اعتبار الخطاب الدعائي من على منصتي رابعة والنهضة خطاباً سياسياً، فالتحريض على العنف أو التهديد به ليس من أدوات الأحزاب السياسية، بل محظور على الأحزاب تكوين مجموعات مسلحة أو أن يمارس عناصرها عملاً مسلحاً مهما كان نوعه وشكله.

ثم بعد فض اعتصام رابعة استمرت بعض الأحزاب في الانضمام للإخوان فيما يسمى «جبهة دعم الشرعية» مثل حزب البناء والتنمية وحزب الفضيلة وحزب الإصلاح والحزب الإسلامي وحزب الوطن الذي ينسحب لاحقاً (٢٠١٤) وحزب الوسط الذي سينسحب لاحقاً أيضاً (٢٠١٤) وحزب الراية، وللتذكير فإنّ كثيراً من المراكز البحثية اعتبرت فاعليات دعم الشرعية لم تكن أبداً مساراً سياسياً معارضاً، بل كان مساراً مناوئاً للسلطة التي نشأت بعد ٣ (يوليو) ٢٠١٣، والجدير بالذكر أنّ موقف «حزب النور» الذي لم ينضم للإخوان في تلك المرحلة وانحاز لبيان ٣ تموز (يوليو)، اتخذ ذلك الموقف من منطلق فكرة مهيمنة هي وجوب السمع والطاعة للحاكم المتغلب وهي في كل الأحوال فكرة غير سياسية وتتناقض مع المفهوم العملي للحراك السياسي.

وأخيراً نلاحظ تيبس البنية التنظيمية لتلك الأحزاب، فكثير منها لم تجدد شبابها ولم تغير قياداتها منذ التأسيس، فحزب البناء والتنمية يتولى رئاسته طارق الزمر، ولم يتغير حتى الآن، وكذلك حزب الوسط الذى يترأسه أبو العلا ماضي، وحزب النور منذ استيلاء الدكتور يونس مخيون على مقاليده مايزال على مقعد القيادة، وتم تجديد الثقة فيه منذ أيام، أما حزب الوطن الذي يترأسه الدكتور عماد الدين عبد الغفور فهو على رأسه ويرسم سياساته منذ اللحظة الأولى.

اليوم وبعد مرور عشرة أعوام يمكننا القول إنّ حصاد التجربة السياسية للأحزاب ذات المرجعية الإسلامية لم تكن ناجحة بالشكل الكافي لتحظى بالقبول الشعبي، وذلك يعود لضبابية مفاهيمها السياسية، وعلاقتها بالإسلام كمرجعية، ولضمور الممارسة السياسية وتشتت الغاية وهشاشة البنى التنظيمية والقابلية للتشظي والانشقاق، والارتكاس لفكر الجماعات السرية والمسلحة.

الكراهية والانتقام أحد أسرار التوريث الإخواني

يعد التوريث أهم سر من أسرار جماعة الإخوان المسلمين، فاستمرار الجماعة في دورها الوظيفي في المجتمع لا يرتكز على فكرة دينية خالصة؛ بل يعتمد على ترسيخ أفكار تنظيمية في ثوب ديني، والأخطر أنّ هذه الأفكار لا تدعم الانتماء ولا تشيع السلام، ولا تعمل على تنشئة صحيحة لعناصرهم؛ فالتربية عند الإخوان ليست كما يفهم التربويون أنها تعديل في السلوك أو الوصول بالمربى لأن تكون سلوكياته إيجابية في كثير من النواحي؛ بل الوصول بالعنصر الإخواني لأن يكون تابعاً شديد الولاء للجماعة على حساب أي كيان آخر.

إنّ عملية التوريث في الإخوان هي القدرة على غرس قيم الجماعة التنظيمية ونقل المشاعر السلبية مثل عدم الانتماء للوطن، الاستعلاء والإحساس بالتفوق النوعي، والشعور بالحقد والكراهية والتشفي، وأخيراً الرغبة في الثأر والانتقام، كل تلك المشاعر التي حصدوها في كل تجاربهم الفاشلة السابقة ينقلونها إلى الأجيال التالية، وتحتاج إلى ثلاثة أركان؛ المورثون: وهم الأجيال السابقة، والوارثون وهم: الجيل الحالي، والميراث وهو: قيم الجماعة التنظيمية، أما آلية التوريث: فهي نقل

«استمرار الجماعة بدورها الوظيفي لا يرتكز على فكرة دينية خالصة بل على ترسيخ أفكار تنظيمية بثوب ديني»

حصاد تجارب التنظيم السابقة للأجيال التالية عبر وسائل مختلفة؛ منها لقاءات الأسرة التربوية (الخلية الأولى في التنظيم)، ولقاءات الكتائب ولقاءات التثقيف ووضوح الرؤية التي تعد الحبل السري الممتد من القيادة إلى القاعدة.

في البداية يتم ضخ تقليل الشعور بالذات وبقيمة الفرد، ففي سبيل ضمان بقاء عضو الجماعة في التنظيم يتم غرس فكرة أنّ لا قيمة له منفرداً، وإنّ قيمته تتحدد حسب انتمائه للجماعة، بل حسب درجته في التنظيم، لهذا يتصارع الإخوان على مناصب التنظيم ليس لأنّ فيها مكاسب مادية بل لأنّها شهادة بقيمته، من خلال آلاف الكلمات الموجهة حول أهمية الجماعة والعمل الجماعي، وأنّ الفرد لن يكون بغير جماعته، والجماعة ستكون دائماً به أو بغيره، لذا لا يقبل القادة شركاء في الانتماء، فلا يقبلون أن تكون محباً لجماعة أخرى، أو أن تتواصل معهم، أو يكون لك رافداً ثقافياً غير كتبهم، ثم يورثون لأعضائهم مفهوماً مغلوطاً عن الولاء والبراء، فيجعلون أنّ الولاء الحقيقي يكون للجماعة والتنظيم لأنّها هي التي تعمل للإسلام دون غيرها، وأنّ هذا الولاء فوق أي ولاء آخر، سواء للوطن أو للعائلة أو حتى لأسرتك الصغيرة إذا كنت متزوجاً.

كما يستخدمون أحاديث نبوية ويفسرونها بما يتوافق مع توجهاتهم، ويستخرجون من الحكايات ما يناسبهم ولو قسراً، حتى لو اضطروا أن يطمسوا الحقائق، ويكذبوا في سرد الوقائع؛ فمثلاً يوظفون خبر ورد عن أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، أنّ ابنه الأكبر قال له بعد أن أسلم، إنّه كان يهرب من مواجهته في بدر حتى لا يلتقيا، فرد عليه أبو بكر حازماً أنّه كان يبحث عنه ليقتله، أو ذلك الخبر الذي يذكر أنّ أحد الصحابة وجد أخاه أسيراً، فقال للصحابي الذي أسره أشدد عليه، فإنّ له أماً غنية ستدفع له الفدية، وهكذا حتى أن أحدهم كان يفاخر أمامنا أنّ الجماعة لو أمرته أن يطلق زوجته لطلقها امتثالاً لأوامر الدعوة (التنظيم)، كما فعل نبي الله إسماعيل عندما نصحه نبي الله إبراهيم، عليهما السلام، أن يغير عتبة بيته (كناية عن الزوجة)، فيرث عضو الجماعة ضعف انتماء للعائلة ولو وصل الحال لقطع الرحم إذا دعت الحاجة إلى ذلك.

«عملية التوريث في الإخوان هي القدرة على غرس قيم الجماعة التنظيمية ونقل المشاعر السلبية»

ثم يورث الإخوان لاتباعهم أنهم يحتكرون الحق والإيمان، ولذلك يدعون المجتمع إلى ما هم عليه، وليس إلى ما عليه الإسلام، هذا الاستعلاء يبدأ بالتأكيد على أنّهم متفرّدون عن أقرانهم وأقاربهم لأنّهم يعملون للإسلام، وأنهم الأكثر فهماً للإسلام بل هم وحدهم من حباهم الله تعالى بفهم صحيح للدين، وأنّ غيرهم متردد ونفعي، وأنّهم وحدهم ورثة رسول الله، والذين يحملون رايته، وأنّ وعد الله لهم أنهم سينتصرون كما انتصر الرسول، صلى الله عليه وسلم، وأنّ العالم أجمع سيحاربهم، وعليهم ألّا يغتروا بأهل التدين وبصلاحهم، ولا بأصحاب الهيئات ورؤساء الحكومات، ولا برجال الأعمال ورؤساء الأحزاب، ولا بعلماء الدين من غير الإخوان، فالكلّ سيعادي الإخوان، لا لشيء إلّا لأنهم إخوان، لذا لا يقبل أعضاء الجماعة أي نقد لجماعتهم أو قادتهم، أو أي دراسة عن أخطاء الجماعة سياسياً وتنظيمياً، ولا يسمحون حتى لقراءة جديدة لتاريخ الإخوان، فميراثهم الذي استلموه من الأجيال السابقة يؤكد أنّهم الحق وغيرهم هو الباطل، ولا يمكن لهم أن يسمحوا لأهل الباطل أن ينتقد أهل الحق!!

ثم يورثون الحقد والكراهية، مطبقين عملياً فكر سيد قطب في «معالم على الطريق» إذ يقول: «ليست مهمتنا أن نصطلح مع واقع هذا المجتمع الجاهلي، ولا أن ندين له بالولاء، فهو بهذه الصفة الجاهلية غير قابل لأن نصطلح معه، إنّ أولى الخطوات في طريقنا هي أن نستعلي على هذا المجتمع الجاهلي وقيمه وتصوراته، وألا نعول من قيمنا وتصوراتنا قليلاً أو كثيراً لنلتقي معه في منتصف الطريق، كلاً، إننا وإياه على مفترق الطريق، وحين نسايره خطوة واحدة فإننا نفقد المنهج كله، ونفقد الطريق».

«يستخدمون أحاديث نبوية ويفسرونها بما يتوافق مع توجاتهم ويستخرجون من الحكايات ما يناسبهم ولو قسراً»

«كل من يعتبر الإخوان «جماعة دعوية» دون أن يرى الآثار الجانبية لها يرتكب خطأ كبيراً بحق الأجيال التالية»

لهذا دائماً ما يشيع الإخوان أنّ الوطن ظالم وقاسٍ غير عادل، ويستحضرون مواقف متراكمة لما يزعمون أنّهم لاقوه عبر العقود الماضية أو الحالية، فيولدون في الجيل الحالي ميراث الكراهية القديم الذي لم يشهده الجيل الحالي، فيصبح من الطبيعي أن يكره عضو الجماعة الرئيس جمال عبد الناصر رغم أنه مات قبل أن يولد عضو الجماعة نفسه أو حتى والده، ويتجاوز ميراث الكراهية للأشخاص إلى الوطن ذاته، حتى انتقلت الكراهية للمتأثرين بخطابهم تجاه الوطن باعتباره دار حرب يستحق البراء منه ومن أهله ومن جرائمه ويفرحون لهزائمه ويحزنون لأفراحه.

كما يورثون أخطر مفاهيمهم كحتمية الثأر، أو حتمية الانتصار، فعناصر الجماعة تؤمن أنّهم يعملون للإسلام، وأن ما واجهوه إنّما هو ضريبة الجهاد في سبيل الله وليس لخرقهم القانون، لذا لم ولن يتقبلوا أي عقوبة، بل يرونها كما يرون جرائم قريش ضد الصحابة، ولأنّهم يؤمنون أنّهم يحملون راية رسول الله، فهم يؤمنون بالتبعية أنهم سينتصرون كما انتصر الرسول الكريم، وهم لا يقصدون الانتصار بمعنى انتصار قيم العدل الخير والحرية التي يحملها الإسلام، بل يقصدون الانتصار العسكري الذي يتم عبر معركة تسيل فيها الدماء، ويمنّون أنفسهم بالانتقام بعد الانتصار من كل من تسبب في هزيمتهم السابقة، ويتركون لخيالهم العنان في تصور الطرق البشعة التي سيستخدمونها ضد أعدائهم.

في النهاية لا يمكن أنّ نعتبر أنّ الثقافة الإسلامية «القشرية» التي يتمسح بها الإخوان هي ميراث الجماعة، بل ميراثهم الحقيقي بث الكراهية والفرقة وعدم الانتماء والاندفاع نحو الثأر والانتقام، وكل من يعتبر جماعة الإخوان «جماعة دعوية» دون أن يرى الآثار الجانبية لها يرتكب خطأ كبيراً في حق الأجيال التالية، التي يجب أن تعرف حقيقة الدور الوظيفي لهذه الجماعة، وكيف شوّهت روح وعقل أتباعها، وسهّلت الخيانة للوطن بزعم اختلاف وجهات النظر.

كيف وظّف الإسلامويون الدين؟

جعل الله، تبارك وتعالى، الدين لنا نبراساً، يرسم لنا العلاقة بين الإنسان وربه وبين الإنسان وأخيه الإنسان، وبين الإنسان ونفسه، علاقة الإنسان بربّه تفهم من خلال الآية الكريمة: «وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ*وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ» [البينة: (٥)]، والآية الكريمة: «وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا* أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ» [النحل: (٥٢)]، وبين الإنسان وأخيه الإنسان، من خلال الآية: «قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ *وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ* كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ» [الأعراف: (٢٩)]، وبين الإنسان ونفسه في الآية الكريمة: «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ» [الروم: (٣٠)].

الدين وغاياته يفهمان من القرآن الكريم، وأية محاولة لفهم الدين بعيداً عن كتاب الله تعالى، تشوه مفهومه وتبدل غايته؛ فمراد الله من رسالاته عبادة الناس لله، وأن يكونوا مخلصين له، ومن مظاهر هذه العبادة؛ إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة؛ لأنّ هذا هو الدين القيم عند الله، كما في سورة «البينة».

هذا المفهوم ظلّ راسخاً، حتى ظهر الإسلامويون في مطلع القرن

«أفكار المودودي والبنا وسيد قطب كانت بمثابة الكتاب المقدس لكل جماعات التكفير والعنف»

العشرين، فإذا بهم يغيرونه ويغيرون غايته إلى وجهة وغاية ما أنزل الله تعالى بها من سلطان، ووظّفوا الدين للوصول إلى الحكم؛ ففي كتاب «الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية»؛ يقول أبو الأعلى المودودي: إنّ غاية الدين إقامة الإمامة؛ أي وصولهم للحكم، وإنّ الإنسان لن يبلغ رضى الله تعالى بأي عمل من أعمال الإسلام، ما لم يجعل غايته من الدين إقامة الحكم، والتباين كبير بين مراد الله تعالى، وبين الإسلامويين الذين يريدون توظيفه ليحكموا الناس؟!

ولا يختلف المودودي عن حسن البنا، فكلاهما يريد من جماعته الوصول للحكم، فيقول الأخير في رسالة «المؤتمر الخامس»: «والحكم معدود في كتبنا الفقهية من العقائد والأصول، لا من الفقهيات والفروع»، ثم يستكمل «والإخوان المسلمون لا يطلبون الحكم لأنفسهم؛ فإن وجدوا من الأمة من يستعد لحمل العبء وأداء هذه الأمانة والحكم بمنهاج إسلامي قرآني فهم جنوده وأنصاره وأعوانه، وإن لم يجدوا فالحكم من منهاجهم وسيعملون لاستخلاصه من أيدي كلّ حكومة لا تنفذ أوامر الله».

من الواضح أنّ الحكم، ومن اللحظة الأولى هو غاية الإسلامويين، لكنّهم أرادوا الاختباء وراء الدين، ليستخلصوه من أيدي الآخرين باسم الانتصار للإسلام، وليس انتصاراً لأنفسهم، وأنّ على المسلم الحق أن يلتزم جماعتهم وألا يخالفهم في أيّ أمر من الأمور، يقول المودودي: «ألم تروا ما جاء في الكتاب والسنّة من تكرار من ذكر الجماعة ولزومها والسمع والطاعة، حتى أنّ الإنسان ليستوجب القتل، إذا خرج عن الجماعة، ولو قيد شعرة، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم؟»، ثم يستكمل تصوراته عن الغرض من الدين: «إنّ غرض الدين الحقيقي وهدفه؛ إنما إقامة نظام الحق والإمامة الراشدة، وتوطيد دعاته من الأرض؟ كلّ ذلك يتوقف تحقيقه على قوة الجماعة، والذي يضعضع القوة الجماعية، ويفت في عضدتها يجني على الإسلام وأهله جناية لا يمكن جبرها، وتلافيها بالصلاة، ولا بالإقرار بكلمة التوحيد».

من هذا النصّ يمكن فهم لماذا ذبحت جماعة داعش الخارجين عليها والمنضمين لـ«أحرار الشام»، بمثل هذا النص يمكننا فهم كيف طابت نفوس الإسلاميين في أفغانستان قتل بعضهم البعض، بمثل هذه النصوص يوظف

«الحكم غاية الإسلامويين لكنّهم أرادوا الاختباء وراء الدين ليستخلصوه من أيدي الآخرين»

الإسلامويون الدين لصالح مشروعهم الغامض وغير المفهوم، يكشف لنا مدى استغلالهم للدين ولمفاهيم الدين، هم يحاولون إيهام البسطاء وأتباعهم أنّ الانتماء للجماعة التي وردت في القرآن الكريم، أو في السنة النبوية الشريفة، ينطبق على جماعاتهم، وأنّ أيّ عمل يضعف الجماعة هو، في الوقت نفسه، يضعف الإسلام ذاته! والمصيبة أنّهم تركوا ملامح هذا العمل غائمة وتركوا مظاهر إضعاف الإسلام مبهمة، حتى يتسنى لأيّ منهم اعتبار أيّ عمل، مهما كان بسيطاً أو صغيراً؛ أنّه إضعاف للإسلام، فقد يكون رأيه أو مقالته كالتي بين أيديكم، أو انتماء مختلف لجماعة أخرى، كل هذا وارد أن يعدّه الإسلاميون عملاً يضعف الإسلام، والأخطر أنّهم نفوا أن يتم التكفير عنه بأيّ وسيلة غير القتل، فلا العبادة ستحمي فاعلها، ولن يصون دمه نطقه بالشهادتين وكلمة التوحيد، فاستحلوا قتل الموحدين مرتكزين على هذه المقولات، التي واصلها فيما بعد آخرون.

إنّ أفكار المودودي والبنا وسيد قطب كانت بمثابة الكتاب المقدس لكل جماعات التكفير والإرهاب والعنف، فاستباحوا قتل من يخرج عنهم، ولو قيد شعرة، ولم تحسب له صلاته أو صيامه، أو نطقه بالشهادتين.

ومن دواعي الأسف؛ أنّنا لم نجد من يقوم ويفند كلام المودودي مباشرة، وكلّ ما أنتجته المؤسسة الدينية الرسمية هو كلام عام، وتركوا السمّ مدسوساً في العسل، حتى سرى في بدن الأمة، وذلك لأنّهم؛ أيّ الشيوخ والوعاظ لم يحسموا المقصود بالجماعة في الأحاديث النبوية، ولا في القرآن الكريم؛ فمفهوم الجماعة في عهد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، اختلفت عن مفهوم الجماعة في عهد الصحابة الراشدين، رضي الله عنهم.

وفي ظلّ تراخي العلماء الرسميين؛ انفرد الإسلامويون بالناس، واستقووا بالدين، ووظفوه لحسابهم، بمعنى

«هل ننجح في استعادة مفهوم الدين وغايته من أيدي هؤلاء المتطرفين طلباً للسلام والأمن والأمان؟»

أكـثر وضوحـاً، اسـتغلوا الديـن في تحقيـق مصالحهـم سياسـية والعمـل عـلى التأثـير في عقـول الآخريـن، بمـا يسـاعد في انقيادهـم خلفهـم، واعتمادهـم كمرجعيـة، فكـثر القتـل باسـم الديـن وانهـارت مجتمعـات باسـم الديـن، وتشـتتت ملايـين مـن الأسر باسـم الديـن، والديـن بـراء منهـم، كلّ هـذا لأنّهـم نجحـوا في تغيـير مـراد الله تعـالى مـن الديـن؛ فمـن الواضـح مـن كتـاب الله تعـالى، أنّ الله تعـالى أراد لنـا مـن الديـن الهدايـة، بينمـا أراد الإسـلامويون مـن الديـن التوظيـف.

ومـن المهـم الآن؛ أن نحسـم أمرنـا، فهـل سـننجح في اسـتعادة مفهـوم الديـن وغايتـه مـن أيـدي هـؤلاء المتطرفـين؟ طلبـاً للسـلام والأمـن والأمـان؟ أم سـنتقاعس ونسـتمر في تجـرع مـرارة القتـل والانهيـار الدخـلي وفقـدان الأمـن والأمـان؟

كيف نشر الإخوان المسلمون الوعي الزائف في المجتمع؟

الوعي هو قوة المجتمع الذاتية والكامنة بداخله، التي تحميه وتحمي أفراده من أي خلل، وتُعدّ معارك استهداف الوعي من أخطر المعارك وأشرسها في القرن الـ٢٠ وحتى الآن، والوعي المجتمعي، في تعريف علماء الاجتماع، هو: مجموع الأفكار والنظريات والآراء والمشاعر الاجتماعية والعادات والتقاليد التي توجد لدى الناس، والتي تعكس واقعهم الموضوعي، ويمكن القول: إنّ وعي المصريين بذاتهم في العصر الحديث تشكّل في منتصف القرن الـ١٩، بعد الحملة الفرنسية على مصر، وما تبعها من نمو للروح الوطنية وإدراك المصريين مدى تخلف الفكر السائد عن العالم، هذا الوعي نشأ بعد سلسلة من التفاعلات مع أحداث وأفكار القرن الـ١٩، تمثلت تلك الأفكار في وجدان العامّة بعبارات راجت على ألسنتهم رسمت إلى حد بعيد منظورهم لأنفسهم وللآخر وللدين وللدولة، مثل عبارة «الدين لله والوطن للجميع»؛ أي الوعي المجتمعي أيقن أنّ اختلاف العقيدة أمر مرجعه إلى الله وليس إلى الناس، وأنّ الدين علاقة بين الفرد وربّه، لا مكان ولا دخل للآخرين فيه، وأنّ

«أدى انتشار الجمعيات الدينية في الثلث الأول من القرن العشرين إلى تغيّر بالمجتمع المصري نتج عنه انتكاسة وعيه بشدّة»

جميع الناس باختلاف عقائدهم مشتركون في الوطن بدرجة واحدة ومتساوية.

أيضاً في عبارة «الدين المعاملة» التي لخصت حقيقة الدين في منظور الوعي المجتمعي، واعتبرت أنّ تجلي الدين الحقيقي في تعامل البشر فيما بينهم، وأنّ قيمة التدين الحقيقي والالتزام تكمن في تحقيق العدل والاحترام والحرّية وعدم التدخل في شؤون الآخرين، والعكس صحيح، وكشفت أيضاً أنّ الطقوس والعادات والشعائر هي من شكليات الدين المزينة له، ولا تُعدّ أساساً له بأيّ شكل من الأشكال، على هذه الركائز تأسست مرحلة وعي مجتمعي تحديثية، وكانت واعدة.

غير أنّ ثمّة تغيّراً حدث بالمجتمع المصري أدّى إلى انتكاسة وعيه بشدّة، ففي الثلث الأول من القرن الـ٢٠ انتشرت الجمعيات الدينية، مثل؛ الجمعية الشرعية، وجماعة أنصار السنّة المحمدية، وجماعة الإخوان المسلمين، وجماعة مصر الفتاة، وجمعية النهضة الإسلامية، وجمعية الحضارة، وغيرها الكثير، ظهرت هذه الجمعيات لأسباب متعددة؛ منها العمل كحائط صد أمام الأفكار السياسية والاقتصادية التي كانت تجتاح العالم في مطلع القرن الـ٢٠، ولم يكن مرحباً بها من قبل السلطات الحاكمة وقتها، وحتى تقوم تلك الجمعيات بوظيفتها رفعت شعار العودة إلى الإسلام، وهي فكرة سطحية للغاية، تقوم على افتراض أنّ ما يعيشه المسلم المعاصر وما يمارسه من سلوكيات هي ضدّ الدين، وربطوا واقعه المهزوم وحياته الاقتصادية بابتعاده عن الدين، وقدّموا الحلّ في أنّ العودة إلى الدين هي النجاة، وقد انتشرت تلك الفكرة في صفوف العوام نظراً لحالة الارتباك التي أصابتهم من جرّاء استخدام الصفوة لمفاهيم حديثة مثل مفهوم الدولة والسلطات الـ٣ (التشريعية والتنفيذية والقضائية)، وكذلك مفهوم الفصل بين هذه السلطات، ولم يستطع أصحاب خطاب الإسلام الرسمي تقريب تلك المصطلحات إلى العوام، وإقناعهم بأنها امتداد طبيعي للتجمع الإنساني، وقد استغلت الجمعيات الدينية هذه الثغرة، ونفذت منها مستهدفة وعي المجتمع بذاته وعلاقته بمحيطه العربي والإسلامي والإنساني.

ثمّ قاد عناصر تلك الجماعات حملة لتشتيت الوعي المجتمعي، خلال العقود

التالية حتى الآن، تقودهم جماعة الإخوان المسلمين بما لها من توغل في صفوف الجماهير، استهدفوا الوعي عبر ٣ محاور:

الأوّل: غرس فكرة «المؤامرة الكونية على الإسلام والمسلمين» في وجدان المصريين، وروّج الوعاظ من تلك الجمعيات للمؤامرة مستخدمين كلّ وسائلهم لإثبات أنّ الغرب نجح في تحويل المسلمين إلى مسلمين بالاسم فقط دون المضمون، وسرعان ما وجد هذا الخطاب جماهير تستمع له وتؤمن به، فانتقل من جدران اللقاءات السرّية إلى ساحات المساجد الرسمية الكلاسيكية، وأصبح من سمات الخطاب الديني، حتى كاد يكون من أهمّ مكوّنات الوعي الزائف الحالي.

المحور الثاني: التشكيك في أنظمة المجتمع (النظام السياسي والاجتماعي والفكري والتربوي)، وبعد إيمان البسطاء بفكرة المؤامرة، يقومون بالتشكيك في صوابية الأفكار والنظريات الاجتماعية السائدة، مثل (الوطنية ـ القومية ـ الديمقراطية ـ الحرّية... إلخ)، واتهام تلك النظريات بأنها لا تتوافق مع الشرع الإسلامي، وأنها وافدة من الغرب الذي يتآمر على الإسلام والمسلمين، فروّجوا أنّ الديمقراطية يمكنها أن تقرّ أمراً لم يشرّعه الله، لهذا هي باطلة، وأنّ الوطنية هي شعوبية مذمومة من الرسول، وأنها من دعاوى الجاهلية، وأنّ الحرّية فساد، وأنّ الليبرالية أن تسمح لأمّك أن تسير عارية، وأن تعاشر من تشاء بغير زواج، وغيرها من النظريات، ثم إذا سأل سائل: ما البديل؟ ينتقلون إلى المحور الثالث بطرح أفكار ونظريات زعموا أنها إسلامية، وأنها هي التي ستنقذ البشرية من الضلال إلى الهدى، ومن الظلام إلى النور، منها ما يخصّ الإسلام، ومنها ما يخصّ الدولة والحكومة ومؤسساتها، فنشروا أفكاراً، منها على سبيل المثال «الإسلام دين ودولة»، والحق أنّ الإسلام دين وعقيدة، وأنّ على المسلم أن يقيم دولة لكلّ المسلمين، وهذا لم يتحقق، ولن يتحقق، على الحكومة أن تكون إسلامية، وعلى الدولة أن تكون إسلامية، وعلى المجتمع أن يكون إسلامياً، وعلى الأفراد أن يكونوا إسلاميين، وغيرها من الأفكار السطحية التي لاقت رواجاً نظراً لتدثرها بلباس الدين، فنشأ وعي جديد، لكنه متهافت وزائف تمكّن فقط من التشويش على الوعي الحقيقي، ولم يستطع أن يضع أفكاراً ونظريات ونظماً اجتماعية وسياسية حقيقية، تلبي حاجات الفرد والمجتمع وتؤسس لدولة جديدة، لهذا أطلق البعض عليه «بلاهة الوعي» أو «الوعي الزائف».

وبدأ طريق الوعي الزائف بالتشكيك في الهوية الوطنية، وطرح بديل لها، وهي الهوية الإسلامية، وخطورة هذا الطرح الزجّ بالمجتمع في صراعات لا تنتهي بين مكوّناته بعضها بعضاً، ولا يتيح له فهم وترتيب أولوياته، فالهوية البديلة تعني رفض مشاركة الآخر في الوطن؛ بزعم أنه «ذمّي» ليس له حقوق المواطنة كاملة، وتأتي إجابة مرشد جماعة الإخوان مصطفى مشهور، حين أفتى في العام ١٩٩٧ بإبعاد

«غرس الإخوان فكرة «المؤامرة الكونية على الإسلام والمسلمين» في وجدان المصريين، وروّج الوعاظ أنّ الغرب نجح في تحويل المسلمين إلى مسلمين بالاسم فقط دون المضمون»

المسيحيين عن الالتحاق بالجيش المصري، وبرّر موقفه وقتها بضرورة «أن يكون أفراد الجيش في الدولة الإسلامية من أصحاب العقيدة ذاتها، وليس من أصحاب عقيدة أخرى، حتى يتمكنوا من مواجهة أيّ عدو يحاول الاعتداء على الدولة الإسلامية، وفي ظلّ وجود عناصر مسيحية في جيشها يمكن أن يجعل هذه العناصر تمالئ العدو وتسهل له»، صحيح أنّ هذه الهوية لم تترسخ بشكل جدّي في المجتمع نظراً لاستحالتها، إلّا أنّ هناك من يزعم أنّ تمام الوعي هو أن تؤمن بضرورة قيام الدولة الإسلامية.

غالباً ما تدفع الهوية البديلة الزائفة المجتمع للانشغال بمشكلات مجتمعات أخرى، بزعم أنّ هذا من أولويات المسلم، ما يؤدي حتماً للانصراف عن الاهتمام بمشكلات الوطن الحقيقية، ويمكننا القول: إنّ هذا وقع بشكل جزئي عاطفي عندما انشغل المصريون وكثير من العرب والمسلمين في نهاية السبعينيات وطوال عقد الثمانينيات بمشكلة أفغانستان، وتقاطرت الوفود للانضمام إلى ما يُسمّى «الجهاد»، تحت الزعم بواجب نصرة المسلمين هناك، وهو السبب ذاته الذي دفع بعض المسلمين في أوروبا للانضمام إلى داعش.

وأخيراً استهدف الوعي المواطن المسلم نفسه، بإعطائه صورة غير حقيقية عن دوره في المجتمع، وتصوّره عن نفسه، فبدلاً من دفعه إلى الاعتزاز بهويته الوطنية، صوّروا له أنّ هذا الاعتزاز «وضيع» ولا يصحّ في حقّ المسلم، وأنّه لا اعتزاز إلّا بالدين، فنشأ صراع بين الهوية الوطنية والدين كعقيدة، هذا الصراع المقلق جعل المجتمعات دائماً في حيرة، ولا يقين لديها، وتنكبت عن طريق التنمية والاستقرار والتحضر، وفقدت السلام الاجتماعي، وتفسخت العلاقات المجتمعية، وأصبح الجميع جاهزين للاحتراب الداخلي.

تفاوتت وسائل الإسلاميين عبر كلّ عصر، ففي البداية استخدموا الخطب المنبرية وكلمات الوعظ، ثمّ استخدموا المجلات والصحف الإسلامية، ثمّ الكتب ودور النشر، وأخيراً صفحات السوشيال ميديا، وفي كلّ الأحوال كان هناك العنصر الإخواني القادر على نقل تلك الأفكار إلى

محيطه بالمجتمع، سواء العائلة أو العمل أو الأصدقاء والمعارف، والمطالع لتلك الصفحات ولتلك الأفكار التي تمّ ضخها في عقول ووجدان الكثير من فئات المجتمع الطبقية والعمرية، يكتشف أنها تدور في هذه الدوائر، إمّا التشكيك في إسلام المسلم، وإمّا التشكيك في حقيقة الوطن ومؤسساته، وإمّا الدعوة لنظريات إسلامية في الحكم والاجتماع، ومعظمها عند الاختبار جاءت بنتائج كارثية.

نحن اليوم في أمسّ الحاجة لترميم ما أفسده المتطرّفون والمتشدّدون في مكوّنات الوعي الاجتماعي، فهل لدينا القدرة على إدراك ذاتنا الحقيقية ووعينا السليم الذي شوّشه الإسلامويون؟ أزعم أنّ فشل الإسلام السياسي أتاح فرصة ذهبية لاستعادة الوعي الحقيقي، بتكاتف الأطراف كافة، مثل؛ مؤسسات المجتمع المدني، والمؤسسات المعنية بنشر الثقافة والتربية والتعليم، وتحت إشراف علماء الاجتماع المعاصرين، عبر تدشين مشروع قومي ووطني، يقوم أوّلاً بكشف أساليبهم في نشر الوعي الزائف، وتحديد ماهية الأفكار التي بثوها في المجتمع، ومن ثمّ هشّمت الوعي، ويقوم ثانياً بطرح أفكار ونظريات اجتماعية حديثة بشكل هادئ تعيدنا إلى مرحلة تقبّل الآخر، والفصل بين السلطات، وإلى حقيقة الدين كمعاملات بين البشر، مع توقع قيام معركة مع حرّاس الوعي الزائف، من غير عناصر الجماعات المتطرفة والذين لا يدركون أنهم واقعون تحت تأثير وعيهم الفاسد، الذين - بحسن نيّة - يعيقون مسيرة الوعي الحقيقي، وفي حالة فوات الفرصة أتوقع أن يعاود الإسلامويون هجمتهم على وعينا بضراوة، ما يصعب معه ترميم ما أفسدوه هذه المرّة... والله أعلم.

كيف استهدف الإخوان تغيير العرف العام؟ ولماذا؟

إنّ خروج جماعة الإخوان من دوائر الحكم التي وصلوا إليها في أعقاب ثورات «الربيع العربي» حدث غاية في الأهمية يقع ضمن مشروع مواجهة الماضوية والتطرف والإرهاب، لكنه لا يمثل نهاية المطاف ولا يعد هزيمة لهذا المشروع، فما يزال الطريق طويلاً لاجتثاث الأفكار المتشددة والظلامية التي بثها المتطرفون في الأمة عبر تسعة عقود مضت.

كانت البداية بعد عشرة أعوام من نشأة جماعة الإخوان، وبعد عدة محاولات للتوغل داخل المجتمع المصري، أعلن حسن البنا، مؤسس الجماعة، أنّ غايته ليست الوعظ والإرشاد، لكن تغيير العرف العام وتكوين تنظيم قوي يتم تربيته على عينه، ففي المؤتمر الخامس للجماعة والمنعقد في شباط (فبراير) ١٩٣٩ بسراي لطف الله فاجأ البنا الجميع بغايته

«بعد ١٠ أعوام من إنشاء الجماعة أعلن البنا أنّ غايته ليست الوعظ والإرشاد بل تغيير العرف العام»

الجديدة، وهي «تكوين جيل جديد من المؤمنين بتعاليم الإسلام الصحيح، يعمل على صبغ الأمة بالصبغة الإسلامية الكاملة في كل مظاهر حياتها»، مؤكداً أنّ «وسيلته في ذلك تنحصر في تغيير العرف العام وتربية أنصار الدعوة على هذه التعاليم».

أدرك حسن البنا أنّ طريقه للسيطرة على أي مجتمع وصبغه بصبغته التي زعم أنّها إسلامية، تأتي عبر وسيلتين؛ الأولى عامة والثانية خاصة، أما العامة: فتقوم على تغيير العرف العام أي تغيير ما تعارف عليه الناس وألفوه، وصاروا عليه في تصرفاتهم، سواء كان فعلاً أو قولاً واعتادوا عليه، ببساطة يريد البنا تغيير الوجدان الشعبي وفق هواه؛ لأنّ هذا الوجدان هو المعيار الفعلي في قبول فكرة ما أو رفضها، وهو الذي يقر أفعالاً بعينها أو يرفضها، وحاول تغيير العرف العام بتغيير منظور المجتمع لما يعتبره مقبولاً أو مرفوضاً سواء كان فعلاً أو فكراً.

وأما الوسيلة الخاصة فهي «التربية المقصودة» تلك التي تتم لعناصر جماعة الإخوان في لقاءاتهم بالأسرة (الخلية التنظيمية الأولية)، ومنها يتم صياغة الفرد الإخواني، وتقديمه على أنه النموذج الإسلامي الذي ينتظره المجتمع ليخلصه من مشاكله.

رسم البنا لجماعته الطريق لتحقيق غايته، فبدأ بنشر أفكار سلبية عن الأفراد وعن المجتمع ككل وعن المؤسسات وعن الحكومات وعن الدولة القطرية الحديثة في مجلة «النذير» التي أصدرها في أيار (مايو) ١٩٣٨، فقدم شرحاً جديداً لـ«مفهوم شمولية الإسلام»، بشكل يخدم الدور الوظيفي الجديد المقدِم عليه، واتهم الجميع أنهم بعيدون عن الإسلام «وإنّ الجيل الحالي لا يستحق أن يطلق عليه مسلم»، و«إنّ هناك جيلاً جديداً ننتظره سيكون على يديه النصر»، وزعم أنّه قادر على تكوين هذا الجيل عبر تربيته لأتباعه من الجماعة.

«أسس البنا تنظيماً مسلحاً يتم تربية أفراده على مبادئ الإخوان السرية والشفهية لإخراج «النموذج الإخواني»»

«رسم البنا لجماعته الطريق لتحقيق غايته فبدأ بنشر أفكار سلبية عن الأفراد والمجتمع ككل»

ثم قام بتأسيس وتكوين تنظيم سري مسلح العام ١٩٣٨ يتم تربية أفراده على مبادئ الإخوان السرية والشفهية لإخراج «النموذج الإخواني»، الذي تعمد أن يكون مبهراً ذا شكل إسلامي ظاهري ليعجب به الناس، ومن ثم يحاولون أن يقتربوا منه بتطبيق أفكاره، أو على الأقل لا يمانعوا أن يطبق أبناءهم ذات الأفكار، أو ينضموا للتنظيم الذي يصيغ أفراده بمثل هذه الأفكار.

ثم أطلق كل دُعاته لبثّ هذه الأفكار في المجتمع، والتبشير به على أمل تغيير أعراف الناس، ليقوموا بتحطيم نظامهم الاجتماعي بأيديهم، أو بأيدي الإخوان، وهذا التحطيم أفصح عنه في المؤتمر السادس الذي انعقد في ٩ كانون الثاني (يناير) ١٩٤١ بأنّه يريد تحطيم النظام الاجتماعي القائم وأن يُستبدل به نظام اجتماعي خير منه لم يوضحه في حينه، واكتفى بأن وصفه «نظاماً إسلامياً»، وطبعاً بعد تحطيم النظام الاجتماعي وتغيير الأعراف العامة يسهل على التنظيم السري الإخواني السيطرة على مفاصل المجتمع.

في رسالة التعاليم حدد البنا ٣٨ واجباً على عضو التنظيم أن يتصف بها، وإن لم يتصف بها فهو من القاعدين الكسالى، فقد ختم رسالته بتلك الجملة المحفزة لأتباعه والتي اعتبرها الإخوان ميزاناً يزنون بها أتباعهم والناس أيضاً، ومن داخل تنظيم الإخوان السري انتقلت كعدوى فكرية إلى كثير من مكونات المجتمع، وبتحليل هذه الواجبات يكمن السم في العسل، ففي غالب الواجبات التي تبدو إسلامية (وهي تمثل العسل) توجد واجبات تنظيمية تهدد العرف العام وتهدم النظام الاجتماعي (وهي السموم) التي دسّها الإخوان في المجتمعات، منها الواجب رقم (١٦) حيث يطلب البنا أن يقطع الناس صلتهم بالحكومات فيقول «ألا يحرصوا على الوظيفة الحكومية، وأن يعتبروها أضيق أبواب الرزق، مع عدم رفضها إذا أتيحت،

«في غالب الواجبات التي روّجها الإخوان إسلامية توجد أخرى تنظيمية تهدد العرف العام والنظام الاجتماعي»

«زرع ما يمكن أن يكون عائقاً نفسياً ووجدانياً ضد كل ما هو حديث باعتباره ضد الإسلام»

والتخلي عنها إذا تعارضت تعارضاً تاماً مع واجبات العضوية في الجماعة (التي سيطلق عليها البنا مصطلح الدعوة).

خطورة هذا الواجب أنه يمنع أتباعه أو من يؤمن بأفكارهم، من التأثر بأي قيمة سلوكية أو فكرة تخرج من الدوائر الرسمية، وتمنعهم من الانتماء للدولة ومؤسساتها، بهذا الواجب يضمن البنا ولاء وانتماء أتباعه له ولجماعته وتنظيمه فقط.

كذلك الواجب رقم (٢١) الذي ينصح أتباعه فيه بعدم التعامل المالي مع المخالفين في العقيدة داخل الوطن الواحد، فيقول «أن تخدم الثروة الإسلامية العامة بتشجيع المصنوعات والمنشآت الاقتصادية الإسلامية، وأن تحرص على القرش فلا يقع في يد غير إسلامية مهما كانت الأحوال، ولا تلبس ولا تأكل إلا من صنع وطنك الإسلامي»، نلاحظ هنا أنه لم يقل وطنك المصري أو السوري أو المغربي، فالوطنية والقومية لا محل لها عند البنا أو أي إخواني، أو أي شخص يؤمن بهذا الواجب، والتطبيق العملي لهذا الواجب، تحويل الشخص لمشترٍ ومستهلك لمنتجات غير وطنية، ومقاطع لمنتجات مصرية تم تصنيعها في مصانع لمصريين مسيحيين مثلاً.

لم ينس البنا تغليف الواجب بغلاف يبدو إسلامياً، في حين أنه مخالف لسيرة الرسول الكريم الذي باع واشترى واقترض من غير المسلمين بالمدينة المنورة، ولم يؤثر هذا في الدين الإسلامي، ولكنها طريقتهم لتغيير النظام الاجتماعي والعرف العام، والزج بكلمة إسلامي ليوهم أتباعه أنها فكرة إسلامية، ولو بالمخالفة لسنّة الرسول، صلى الله عليه وسلم.

أيضا الواجب رقم (٢٤) الذي يكشف رفضه للتحديث والانفتاح على الآخر، ويكشف رؤيته الماضوية الظلامية، تحت مزاعم إحياء العادات الإسلامية فيقول «أن تعمل ما استطعت على إحياء العادات الإسلامية، وإماتة العادات الأعجمية في كل مظاهر الحياة، ومن ذلك التحية واللغة والتاريخ والزي والأثاث، ومواعيد العمل والراحة، والطعام والشراب، والقدوم والانصراف، والحزن والسرور..إلخ، وأن تتحرى السنّة المطهرة في ذلك».

نلاحظ هنا أنّه يوهم أتباعه أنّ هناك زياً إسلامياً وآخر غير إسلامي، وأنّ هناك أثاثاً إسلامياً وآخر غير إسلامي، وأنّ هناك طعاماً وشراباً إسلامياً وآخر غير إسلامي، ولاحظ أيضاً أنّه لم يتحدث عن الأطعمة المحرمة شرعاً، والتي لن يختلف عليها

«الفكرة الإسلامية في أدبيات حسن البنا المقصود بها الجماعة ولكنه لا يصرح بذلك»

أحد، لكنه تحدث عن عادات وتقاليد في اختيار أنواع الطعام وأنواع الأثاث، والتي لم يحدد ما طبيعة الأثاث الإسلامي والأثاث غير الإسلامي الذي يتحدث عنه، وحتى المشاعر (الفرح والحزن) التي أوهم متابعيه أنّ منها مشاعر إسلامية تختلف عن مشاعر غير إسلامية، لكنه قصد تغيير منظور أتباعه لأي تحديث بأنّه غير إسلامي، وأصبح العرف العام للإسلامويين يفضلون تناول الطعام على الأرض بدلاً من المائدة، والأكل بأيديهم بدلاً من الملاعق، وهكذا زرع ما يمكن أن يكون عائقاً نفسياً ووجدانياً ضد كل ما هو حديث باعتباره ضد الإسلام.

وأيضا الواجب رقم (٢٥) والذي يحرص على نزع عضو الإخوان من المجتمع، مع توليد مشاعر كراهية ضد أهم مؤسسة في الدولة الحديثة وهي القضاء، فيقول لهم: «عليكم أن تقاطعوا المحاكم الأهلية وكل قضاء غير إسلامي، والأندية والصحف والجماعات والمدارس والهيئات التي تناهض فكرتك الإسلامية مقاطعة تامة»، في هذا الواجب يكرس البنا رفض التقاضي ووصف أي محكمة مدنية بأنها محكمة غير إسلامية، ولم يكتفِ بهذا، بل حرص على نزع الفرد الإخواني ومن يؤمن بأفكاره من أي وسيلة يمكن أن تساهم في تكوين أفكاره وثقافته بعيداً عن التنظيم مثل الصحف والأندية الرياضية وغيرها والجماعات المختلفة سواء كانت ثقافية أو أدبية أو دينية، وكذلك المدارس بأنواعها، تحت الزعم أنها تناهض فكرته الإسلامية، ونلاحظ أنّه لم يقل التي تناهض الإسلام كدين، فالفكرة الإسلامية في أدبيات حسن البنا المقصود بها الجماعة ولكنه لا يصرح بذلك.

وأيضا في الواجب رقم (٣٧) الذي يستمر فيه بفرض حصار على عضو الجماعة، ومن بعده المتأثرون بأفكار الإخوان إذ يقول لهم «عليكم أن تتخلوا عن صلتكم بأية هيئة أو جماعة لا يكون الاتصال بها في مصلحة فكرتكم وخاصة إذا أمرتم بذلك»، وهو ما يزيد من تسليم الفرد وعيه لصالح التنظيم والجماعة.

وفي الواجب رقم (٣٥) يحرّض البنا أتباعه ضد المجتمع فيقول لهم: «عليكم أن تحاربوا أماكن اللهو فضلاً عن أن تقربوها، وأن تبتعدوا عن مظاهر الترف والرخاوة جميعاً»، هنا يدخل البنا بأتباعه في اشتباك مع المجتمع مباشرة، فلم يقل ما المقصود بأماكن اللهو، وبالتالي أصبح من حق كل عضو أن يحارب أي مكان تحت الزعم أنّه مكان للهو، كما رسم شكل

الفـرد الإخـواني الـذي يتجهـم في حياتـه بزعـم أنّـه جـادّ، وأنّـه يعمـل للإسـلام، وأن غـيره رخـو مـترف، وبالتـالي انتقلـت هـذه المظاهـر للمجتمـع.

هــذه الأفــكار مايــزال بعضهــا يعمــل في المجتمـع وسـط فئـات لا تنتمـي لتنظيـم الإخـوان، لكنهـا وقعـت تحـت تأثـير الجماعـة في تغيـير العـرف العـام، نجدهـا في كوابـح التفكـير الـتي تعيـق أي حـوار جاد حـول الكثير مــن قضايــا الوطــن المصيريــة ولمواجهــة هـذه الأفـكار، علينـا إعـداد مـشروع نهضـوي تنويـري شـامل للمنطقـة العربيـة الإسـلامية، يعتمــد عــلى الحريــة والاختيــار، واحــترام نتائجهـا والحـوار المجتمعـي الفعـال.

كيف كشفت أحداث آخر ١٠ أعوام الوجه الحقيقي لجماعة الإخوان؟

ظلّ تنظيم الإخوان المسلمين يروّج لعقود أنّ الحكّام هم من يقفون عائقاً ضدّ انتشار الجماعة وتبوّئها مكانتها الطبيعية، بما ينشره الحكّام من شائعات عن عنف الجماعة واتصالها بالغرب وتمويلها المريب، وزعم الإخوان أنّ دافع الحكومات المتعاقبة في تشويههم هو خوف تلك الحكومات من وصول الإخوان إلى الحكم وتطبيقهم لمنهجهم الإسلامي الذي فيه الخير كلّ الخير للأمّة وللعالم أجمع، وزعموا أيضاً أنّ الغرب، بشقّيه؛ الأمريكي والأوروبي، يساعد حكّام المنطقة في حربهم ضدّ الإخوان كراهية في الإسلام ذاته، وحازت فترة حكم الرئيس المصري الأسبق محمد حسني مبارك على أعلى قدر من الاتهامات الإخوانية، فعلى مدار ٣ عقود اعتبروه العقبة الأكيدة في تحقيق مشروعهم الإسلامي في الحكم.

ولأسباب متعددة؛ آمن بادّعائهم قطاعٌ لا بأس به من المصريين، وحلمَ البسطاء منهم بالحرّية، والديمقراطية، والتعددية، والرخاء، والأمن والأمان، الذي وعدهم به الإخوان عبر شعارهم الانتخابي

«ارتكز تنظيم الإخوان في التجييش على خطاب الحنين إلى ماضٍ إسلامي قديم»

(الإسلام هو الحل)، الذي رفعوه في كلّ مناسبة انتخابية، وقام منظّرو الجماعة بإيهام أتباعهم ومؤيّديهم ومناصريهم أنه ليس مجرّد شعار، بل هو مشروع شامل، يشمل كلّ مناحي الحياة.

وفي ظلّ ارتباك الدولة بعد أحداث ٢٥ كانون الثاني (يناير)، وتنحّي مبارك عن السلطة في ١١ شباط (فبراير) ٢٠١١، حصل الإخوان على فرصتهم المنشودة في الحكم، فقد زالت المعوقات التي تمنعهم من تطبيق مشروعهم الشامل. واليوم وبعد ١٠ أعوام من تلك اللحظة، يمكننا تقييم رحلة الإخوان الأخيرة منذ الصعود والهبوط والتيه، وكيف كشفت الأحداث عن الوجه الحقيقي لتنظيم جماعة الإخوان المسلمين وحقيقة مشروعهم.

الحقيقة الأولى: قوّة الإخوان الهشة: بعد تنحّي مبارك طرح الإخوان أنفسهم قوّة وحيدة في الشارع المصري، والحقيقة أنّ هذه القوّة عند الاختبار الحقيقي ظهرت على حقيقتها، وأنها قوّة هشة للغاية، صُنعت بالدعاية والخطاب العاطفي، فالأعداد الكثيرة التي جمعها الإخوان في تنظيمهم تمّ جمعها عبر خطاب يرتكز على الحنين إلى ماضٍ إسلامي قديم، أوهموا الجميع أنهم امتداد له، أو أنهم يحملونه كما حمل الأوائل من المسلمين الإسلام، وأنّهم سينتصرون كما انتصر الرسول الكريم على قريش والكفار والمشركين، لذلك كانت تصريحاتهم مع تنحّي مبارك تتركّز حول مفهومين: الأوّل «أنّ ما حدث هو تمكين من الله لهم»، والثاني أنه «تتويج لجهادهم في سبيله».

وقد غرّ الإخوان كثرتهم العددية، ولم ينتبهوا إلى أنّ هذه الأعداد تصلح في المظاهرات، وتصلح في الهجوم على الخصوم، لكنها لا تملك القدرة على إدارة الدولة، ولا توجيهها، ولا اتخاذ القرارات السليمة والصحيحة، بل أحياناً تصبح الجماهيرية عائقاً أمام اتخاذ القرار السليم، نظراً للجوء القيادة إلى نفاق الجماهير لكي لا تفقدها، ولا يمكن إغفال أنّ تلك القوّة جاءت بسبب الأوضاع السياسية في العهد السابق، فإصرار رجال «دولة مبارك» على تفتيت الأحزاب وإضعافها والإجهاز على الحياة السياسية في مصر، صبّ في خانة الإخوان، وجعلهم في صدارة المشهد دون منازع، من غير أن يبذلوا جهداً يُذكر.

تكرار الخطاب الإخواني العاطفي جعل كثيراً من الشعب يصدّق أنهم

«غرّ الإخوان كثرتهم العددية ولم ينتبهوا إلى أنّها تصلح في المظاهرات والهجوم على الخصوم وليس إدارة الدولة»

أمل، وأنهم يملكون حلاً جذرياً لما تعانيه الدولة من تأخر وضعف، إلّا أنّ الأوضاع الاقتصادية والمجتمعية وقتها لم تكن بهذا القدر من السوء، لكنّ الرتابة والاختناق السياسي وضياع الفرص وصمّ الآذان عن آلام المواطنين لم يكن من السهل على الشعب تجاوزها.

الحقيقة الثانية: جماعة الإخوان لا تعرف الشراكة: حاول الإخوان إيهام القوى المدنية أنهم جماعة تميل إلى المشاركة مع الآخرين ولا تحبّ الانفراد بالحكم، أشاعوا هذا المفهوم أثناء اختراقهم النقابات، فبعد تمكّنهم من أيّ نقابة يتنكّرون لوعودهم، ولا يقبلون أيّ شريك، بل يستأثرون بكلّ المقاعد في شره واضح للسلطة.

وعندما سنحت لهم فرصة الوثوب إلى أعلى سلطة في البلاد، مارسوا تلك الحيلة، فاجتمعوا بقوى المجتمع المدني في فندق «فيرمونت» الشهير، وأصدروا بياناً للتأكيد على الشراكة الوطنية والمشروع الوطني الجامع، الذي يُعبّر عن جميع أطياف ومكوّنات المجتمع المصري، ويتمثل فيه الأقباط والشباب والمرأة، وأن يضمّ الفريق الرئاسي وحكومة الإنقاذ الوطني جميع التيارات الوطنية، ويكون رئيس هذه الحكومة شخصية وطنية مستقلة، وتكوين فريق إدارة أزمة يشمل رموزاً وطنية، للتعامل مع الوضع الحالي وضمان استكمال إجراءات تسليم السلطة للرئيس المنتخب وفريقه الرئاسي وحكومته بشكل كامل، فهل صان الإخوان هذا الاتفاق أم تنكّروا له؟

الوقائع تؤكد أنّ الإخوان قدّموا هذه التعهدات من باب الخداع، وأثبتت التجربة أنهم يستخدمون قوى غيرهم سُلّماً للوصول إلى الحكم والسلطة، ثمّ يرمونهم في العراء، وقد حاولوا تفتيت أيّ قوة سياسية أو اجتماعية يمكن أن تنافسهم بعد تولّيهم الحكم.

الحقيقة الثالثة: جماعة الإخوان لا تؤمن بالديمقراطية ولا بالرأي الآخر: فقد حاصروا مدينة الإنتاج الإعلامي ليخوّفوا الجهاز الإعلامي من أن يقول كلمته، واستعداداً لجعل إعلامهم الخاص ليكون الإعلام الرسمي للدولة المصرية، وحاصروا المحكمة الدستورية على أمل ألّا تنعقد، وتظلّ سلطة الرئيس الإخواني محمد مرسي -وهي سلطة تنفيذية في الأساس- هي السلطة الوحيدة في البلاد، ومع كلّ خطوة

«حاول الإخوان إيهام القوى المدنية أنهم جماعة تميل إلى المشاركة مع الآخرين»

يخطوها الإخوان ليدعموا مركزهم كانوا يهدمون جزءاً من الدولة المصرية.

الحقيقة الرابعة: جماعة الإخوان تؤمن بالعنف المسلّح: لم يكن من الممكن أن يستمرّ الإخوان في هدم مؤسسات الدولة، ولم يسمح الشعب أن يمارس أعضاء الجماعة سلطات رئيس الدولة عليهم، فقاموا بثورة ٣٠ حزيران (يونيو) لعزل مرسي ورفض سياساته، هنا تكشّف للناس الوجه الحقيقي للإخوان بأنهم جماعة تمارس العنف، ولم يكن تهديدهم بحرق مصر سقطة لسان، بل عقيدة تملّكتهم، لذلك ردّوا على مظاهرات الشعب بارتكاب كلّ المحرّمات التي زعموا أنهم تابوا عنها؛ اعتدوا على المتظاهرين، وحرقوا أقسام الشرطة، وهاجموا الكنائس، وحرقوا مقرّات الحكم في العديد من المحافظات، فضلاً عن قطع الطرق، بل قاموا بقتل واغتيال معارضيهم، وفجّروا ونسفوا محطات الكهرباء ومولدات الطاقة، وحاولوا نسف القطارات ومحطات السكك الحديدية... إلخ، فأيقن المصريون أنّ الإخوان مجرمون بطبعهم، وأنّ محاولات تبرئتهم جريمة في حدّ ذاتها، وأيقنوا أنّ الإخوان إذا أُتيحت لهم الفرصة، فسيعيدون الكرّة ثانية.

وعلى سبيل المثال لجرائم الإخوان؛ في أوّل ردّ فعل على التظاهر ضدّ مرسي اشتبكوا في الثاني من تموز (يوليو) عام ٢٠١٣م مع الأهالي في منطقة بين السرايات، وقد أسفر الاشتباك عن ٢٣ قتيلاً، وإصابة ٢٢٠، وفي ٥ تموز (يوليو) من العام نفسه اعتدوا على أهالي منطقة سيدي جابر في الإسكندرية بالأسلحة النارية وزجاجات المولوتوف، وقتلوا ١٢مواطناً، ومنهم من رمى أطفالاً من أعلى أحد المباني، وأصابوا ١٨، وفي نهاية تموز (يوليو) ٢٠١٣ قاموا بأعمال إرهابية متنوّعة، تمثّلت في إطلاق النار على المتظاهرين الرافضين لاستمرار بقاء التنظيم الإرهابي في حكم مصر، ومن أعلى مكتب الإرشاد بالمقطم أطلق الإخوان النيران على المتظاهرين في جريمة أسفرت عن مقتل ١٢ شخصاً، وإصابة ٤٨، وقد وثقت فضائية «إكسترا نيوز» هذه الجرائم في فيلم تسجيلي قصير.

الحقيقة الخامسة: الإخوان هم عملاء الغرب: كشفت ثورة ٣٠ حزيران (يونيو) وجه الإخوان الإرهابي، فقد قرّروا الاعتصام في ميداني النهضة ورابعة، ومن على المنصّة ظهرت عمالة الإخوان للغرب بشقّيه؛ الأوروبي والأمريكي، وظهر عداؤهم لمصر، ومطالبتهم بتدخل

«أثبتت جماعة الإخوان أنّها لا تؤمن بالديمقراطية ولا بالرأي الآخر»

الولايات المتحدة في الشأن المصري عبر رسالتهم الموجّهة إلى الرئيس الأمريكي السابق باراك أوباما بالتدخل، وتمثلت مطالبهم وقتها في وقف الدعم العسكري بالكامل عن مصر، ومطالبة الجيش المصري بالعودة تحت قيادة المعزول، دون الاستجابة لرغبة الشعب، وطالبوا أيضاً الجيش المصري بالإفراج عن أعضاء الجماعة الإرهابية الذين قاموا بعمليات القتل والتفجير.

أخيراً، أدرك المصريون أنّ الإخوان جماعة غير وطنية، فبعد فضّ اعتصام رابعة المسلّح هرب كثير من قيادات الجماعة والقيادات الوسطى إلى تركيا وقطر وبعض البلدان الأوروبية، وبدأ فصل جديد في حياة الإخوان عنوانه الشتات والتيه خارج مصر، وفي التيه قاموا بالتحريض على الدولة المصرية ونشر الشائعات، وكلّما حققت الحكومة عملاً إيجابياً، زاد الإخوان في هجومهم والتشويش على الإنجازات، وإذا وقعت الحكومة في أخطاء إدارية، أو تعرّضت لصعوبات، هاج وماج عناصر الإخوان، بالتشكيك تارة وبالشماتة تارة أخرى، ولم يسلم عموم الشعب من إهانات الإخوان، فقد وصفوهم بأنهم عبيد للبيادة «الحذاء العسكري»، وأنهم البهائم، وعبيد يرضون بالمذلة، لا لشيء إلّا لرفض الشعب المصري للإخوان وحكمهم.

كيف جرّنا الإسلاميون إلى بؤرة التخلف؟

في مطلع القرن العشرين، بدأت مصر تستعيد وعيها، وتكتشف كنزها المدفون، وانتعشت روح الوطنية والحس القومي، وتم ترسيخ المنهج العلمي، ومطاردة الوهم والدجل والشعوذة. فبعد أنْ قَتل الانتماءُ المزيف إلى الدولة العثمانية، الإحساسَ بالوطنية أو القومية، وبعد أنْ نشر المتسترّون بالدين الوهمَ والخزعبلات بين صفوف الشعوب، ظهرتْ للمصريين الحقيقة، واكتشفوا الطريق نحو تأسيسٍ جديدٍ لذاتٍ جديدة، فأخذتْ مصرُ تتخلى عن مظاهر التغييب العقلي، ومهّدتْ لتوطين الحياة العقلية المستنيرة، سواء في الفكر الإسلامي «الذي كان مشروع محمد عبده» كأحد تجليات التنوير، أو الفكر القانوني «مشروع السنهوري»، أحد تجليات الدولة المدنية الحديثة، وكان من ثماره أنْ بدأتْ موجةُ التنوير بالوصول إلى دستور عام ١٩٢٣م، الذي أسّسَ لحياة برلمانية واعدة.

ومع أول خطواتنا، في طريق الحداثة، من خلال الأدب والفكر والثقافة، ظهر لنا التيار الإسلامي «كتيار فقهي متشدّد»،

«إذا كان الانتصار مكافأة من اللّه للفئة المؤمنة فهل يمكن القول إنّ المنتصر هو دائماً الأكثر إيماناً؟»

وعـدّ نفسَـهُ ناصحـاً أمينـاً للأمـة، فانتـدب قـادةُ هـذا التيـار أنفسَـهم، ليشخّصوا الـدّاء ويصفـوا الـدواء، زعمـوا أنّهـم سـيزيلون غبـار التخلـف عنّـا! فمـاذا كان تشـخيصهم لمـا تعانيـه الأمـة؟ هـو الابتعـاد عـن دينهـم!!

يقـول مؤسـس جماعـة الإخـوان المسـلمين، حسـن البنـا: «..أعتقـد أنّ الـسرّ في تأخّـر المسـلمين؛ هـو ابتعادهـم عـن دينهـم، وأنّ أسـاس الإصـلاح العـودةُ لتعاليـم الإسـلام وأحكامـه، وأنّ ذلـك ممكـن لـو عمـل المسـلمون، وأنّ فكـرة جماعـة الإخـوان المسـلمين تحقّـق هـذه الغايـة)، وأصبحـت هـذه الجملـة هـي شـعار كلّ فصائـل الحركـة الإسـلامية مـن بعـده، الـكلّ يُـصرّ عـلى أنّ المسـلمين ابتعـدوا عـن دينهم، وأنّ مـا أصابهـم مـن احتـلال واختـلال، إنّمـا هـو عقـاب مـن الله عـلى هـذا التخـلي، وأنّ طـرد المحتـل يحتـاج، أوّلاً، إلى العـودة للديـن الصحيـح، الـتي سـيتبعها أنْ يسـتعيد المسـلمون مكانتهـم في العالـم. ولمناقشـة هـذه الفرضيـة، يجـب أنْ نسـأل أنفسَـنا: هـل فعـلاً ابتعـد المسـلمون عـن دينهـم؟ ومـا المقصـود بالديـن؟ وهـل هنـاك مظاهـر دينيـة محـددة، إذا حدثـت في أيّ مجتمـع، نقـول إنّ هـذا هـو السـبب في الانتصـار أو السـبب في الهزيمـة؟ وإذا كان الانتصـار مكافأة مـن الله للفئـة المؤمنـة، فهـل يمكـن القـول إنّ المنتـصر هـو دائمـاً الأكـثر إيمانـاً؟

إنّ التشـخيص الخاطـئ يـؤدّي، بالـضرورة، إلى عـلاج خطـأ، وهـذا العـلاج يُعطّـل الطاقـات، ويبـدّد المجهـود، ويشـتّت الأنظـار عـن العـلاج الصحيـح، وعـلى المـدى البعيـد، يولّـد الحـسرةَ وانكسـار الأمـل، تمامـاً كمـا حـدث أيـام الحملـة الفرنسـية، عندمـا قـدّم العاجـزون حـلاً وهميـاً لمقاومـة الفرنسـيين الغـزاة، فقالـوا لهـم إنّ عليهـم البقـاء في المسـجد، وتـلاوة القـرآن، والدعـاء لله أنْ ينجّيهـم مـن البـلاء، فلـم يحثّوهـم عـلى اسـتخدام الوسـائل الحربيـة، أو تنظيـم أنفسـهم، كمـا نظّـم الفرنسـيون أنفسـهم. وهـا هـم أبنـاء الحركـة الإسـلامية في القـرن العشريـن، يُـصرّون عـلى اسـتخدام المنهـج نفسـه، فعندمـا أصابـت الجميـعَ الصدمـةُ الحضاريـة، عندمـا التقينـا بالغـرب المتقـدم، هـرب الإسـلاميون مـن تحمّـل مسـؤولية حـثّ الأمـة عـلى امتـلاك أدوات الحضـارة، لتكـون سـبباً في رفـع الهزيمـة، وأول خطـوة عـلى طريـق الإصـلاح، وبحثـوا في بضاعتهـم، فلـم يجـدوا مـا يقدّمونـه للأمـة العربيـة والإسـلامية، سـوى اتهـام الشّـعب بأنّـه سـبب البـلاء، وسـبب الهزيمـة، لابتعادهـم عـن دينهـم! «رغـم أنّهـم الطّـرف المجـني عليـه

«التشخيص الخاطئ يؤدّي إلى علاج خطأ وهذا يُعطّل الطاقات ويبدّد المجهود ويشتّت الأنظار عن العلاج الصحيح»

في هذه المعادلة». ومظاهر هذا الابتعاد هي: عدم اكتمال صفوف المساجد في الصلاة، خاصة صلاة الفجر، التي لا يحضرها إلّا قلة قليلة. ولمّا آمن كثير من الناس بتشخيصهم، نظراً إلى الابتزاز الديني والعاطفي، الذي مارسه الإسلاميون عليهم، وبعد أنْ شاع بين بسطاء الناس، أنّ تخلفهم سببه الابتعاد عن الدين؛ قدموا لهم الوهم بأنّه حلّ، لكن تحت أسماء جديدة، مثل: «حتمية الحل الإسلامي»، أو «الإسلام هو الحل»، أو «الإسلام دين ودولة»، فتغيّر سلّم الأولويات عند الجماهير، وبدل السّعي لامتلاك أدوات العمل، أصبح شُغلُنا الشّاغلُ إثبات أنّ الإسلام هو الحل، وبدل دراسة التاريخ ومعرفة كيف تقوم الأمم، أو ما سبب انهيارها، أصبح شغلنا إثبات انتمائنا للجزيرة العربية، وليس لذاتنا الإنسانية الحالية، وبدل التعرف على العلوم الاقتصادية، وكيفية النّمو، أصبحتْ مهمتنا أنْ نُحرّم وضع الأموال في البنوك ونضعها في شركات توظيف الأموال الإسلامية، ثم دارت معركة بين مؤيدي التشخيص الخطأ، والعلاج الخطأ، والرافضين لهما؛ فضاعت طاقات الأمة، واستُهلكت في قضايا خلافية تافهة، استنزفتْ قدراتنا في محاولات تطبيق العلاج الخطأ، والمحكوم عليه بعدم الجدوى «تاريخياً وواقعياً»، لا نحتاج الإشارة إلى أنّنا متأخرون في كل المجالات، فهذه حقيقة، لكنْ ليس لأنّنا ابتعدنا عن دين الله؛ بل لأننا ابتعدنا عن الأخذ بالأسباب، العلمية والمنهجية لهذه العلوم؛ فخطورة التشخيص الخطأ، ليس في أنّه خطأ، والتجربة كفيلة بإثبات فشله، إنّما الخطورة في تلك الفئة التي تحارب مَن يقول إنّه خطأ، الخطورة في ترسيخ منهجية غير عقلية أو علمية، الخطورة في اتهام المختلفين مع الإسلاميين، بأنّهم يحاربون الله ورسوله، فهل هناك عاقل يقف أمام الله؟؟ كان يجب على الصفوة والطليعة المثقفة، بالتعاون مع علماء القانون، وعلماء الاجتماع، والتاريخ، والاقتصاد، والسياسة، ...إلخ، أن يكشفوا زيف هذا التشخيص، ويفنّدوا فرضياته، فلم تكن مصر في أية لحظة من لحظاتها، قريبة أو بعيدة، عن الدين، لقد كان الشعب المصري شعباً طبيعياً، يؤمن بالله، وبرسوله الكريم، ويطبق الأحكام، وينحاز للأخلاق، في كلّ مرحلةٍ تاريخيةٍ، بما يتناسب مع طبيعة المرحلة التاريخية وخصائصها، والتدين الشعبي هو الأكثر استمرارية والأكثر بقاء.

«لا نحتاج الإشارة إلى تأخرنا فهذه حقيقة لكنْ ليس لابتعادنا عن دين اللّه بل لابتعادنا عن الأخذ بالأسباب»

إنّ المرض الذي كانت مصر تعاني منه، والأمة العربية، هو غياب العدالة المجتمعية والعدالة الاجتماعية، مع العدالة القضائية، وما كانت تعانيه مصر هو غياب الوعي، والضبابية، وغياب قواعد العلوم التطبيقية، كان يجب على العلماء أن يقولوا لهم إنّ مظاهر المرض التي رصدوها خاطئة، فهذا موجود منذ عهد النبي، عليه السلام، ولم تكن الحياة الإسلامية في صدر الإسلام رائعة، كما توهّم هؤلاء؛ فبطون الكتب تخبرنا بحياة اجتماعية فيها ما فيها، فلم يكن العدل الاجتماعي موجوداً، ولا الإصلاح السياسي منشوداً، وغابت المؤسسة العادلة التي تقيم العدل، وغابت حرية الرأي، تستطيع أن تقول إنّ هذا هو المجتمع المثالي الذي يجب أن يعود، ليبتعد المصريون عن طريق الإصلاح الحقيقي؛ لأنّ المتضررين من وعي مصر الذاتي، كان يهمهم تغييب الوعي مرةً أخرى، هؤلاء ارتكبوا جريمة التشخيص الخاطئ، بالتالي، وصفوا العلاج الخاطئ، فمَنْ يشخّص لنا الدّاء، ويصفُ لنا الدّواء الصحيح؟!